

هيلدا إسماعيل

دانتيلات

السعادة في ثياب الافرين



دانتيلا

(السعادة .. في ثياب الآخرين)

مكتبة | 1324

وزارة الثقافة
مكتبة الأسرة الأردنية / مهرجان القراءة للجميع

• دانتيلات

• المؤلف: هيلدا إسماعيل

• الناشر: وزارة الثقافة

شارع صبحي القطب

المتفرع من شارع وصفي التل

ص.ب. ٦١٤٠ - عمان - الأردن

تلفون: ٥٦٩٩٠٥٤ / ٥٦٩٦٢١٨

فاكس: ٥٦٩٦٥٩٨

Email: info@culture.gov.jo

• الطباعة: مطبعة أروى ٤٨٩٢٦٨٦

• رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠١٥ / ٧ / ٣١٨٨)

• جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال. دون إذن خطي مسبق من الناشر.

• All rights reserved. No part of this part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without the prior written permission of the publisher.

دانتيلا

(السعادة .. في ثياب الآخرين)

مكتبة | 1324

هيلدا إسماعيل

المحتويات

7	مغزل (مدخل لحياكة الكلمات)
27	الأعجوبة . . ذات الثدي الواحد
45	لَقَطَاتٌ حَوْلَ السَّعَادَةِ الْمُحْتَمَلَةِ
65	البَهْلَوَان . . ذلك الرفيق الفاتن
87	المَال . . على مائدة السعادة
109	النَّجَاحَات . . عندما تُصبحُ أوبئة
133	أبدأ . . لا حبُّ حيثُ الأذى
151	العُنف . . يبدأ قبل الصَّفحة الأولى
173	تقاليدُ المرور . . إلى العالم الآخر

مكتبة

t.me/soramnqraa

مغزل

(مدخل لحياكة الكلمات)

نحنُ لم نُولد أو نُصبح (سُعداء) من تلقاء أنفسنا، لأن الإنسان لم يوجد على هذه الأرض ليعيش بائساً، شقيماً، تقيساً ومحروماً. وأن نكون أشخاصاً سُعداءً فهذا لا يعني أنَّ القَدْرَ قد حالفنا.. بلُ يعني حتماً أننا تحالفنا معه.

وهذا ما يفسّر بحثنا وتنقينا بشكلٍ مُستمر عن مفهوم «السعادة»، لذلك نحنُ نكبر ونتحرّك، نُحبُّ، نتألّم، نتعانق، ونُنجبُ أطفالاً ثم نشيخ وما تزال السَّعادة.. أو محاولة الحصول عليها هي غايتنا وحُلْمنا.

ولأنَّ «السعادة» مفهومٌ لزجٌ، زبقي، شديد التملّص، ويصعبُ القبض عليه أو تأطيره بعبارة أو جملة معيَّنة.. فلم يتم الاتفاق بعد على تعريف شاملٍ لها، إلّا أنَّ «أرسطاليس» حاول تعريفها كحالة عقلية يولدها الشعور بالتعوّد على فعل (الخير) الذي يميّز الإنسان كائناً عاقلاً يسمو على الكائنات الأخرى بالنفس العاقلة التي تهدف إلى تحقيق ما هو جميل وحق وعادل.

أمّا الأمر الذي تمَّ الاتفاق عليه.. فهو أنها مفهوم متغيّر، وغير ثابت، ولهذا فإن موجباتها كـ (المال، الحب، القرين، الوعي،

العبادة، التأمل، العافية، العلم، الأسرة، الأطفال، العمل، ومحاولة الحصول على أكبر قدر من ملذات العالم). كلُّها موجبات قابلة للنماء، الزيادة، التحوّل، النكوص، التدرج للأعلى والتدريج نحو الأسفل أيضاً.

السعادة ليست نشوة مستمرة، وليست نجاحاً أو توهجاً دائماً لا ينطفئ، بل هي من يسمحُ بشحناتٍ صغيرة من الفشل والصعوبات، والظروف أن تمرَّ خلالنا دون أن تترك جرحاً عميقاً تتعثر به كلُّ البهجات الأخرى. فحتى أسعد البشر يمكن أن يشعروا بالكآبة في بعض الأوقات، مثلما قد يشهد أتعسُ التعساء أوقات فرح من وقت لآخر. وهذا ربّما ما يميّز الحياة ويجعل إحساسنا بالسعادة أكثر شبيهاً بحلوى لذيذة ترفع منسوب احتياطنا من الطاقة، والمتعة، فيما تناول الكثير منها سوف يثير النفور والغثيان والتوعك.

وبالنسبة لي، فأنا أميل إلى من يقول بأن كلَّ فرد بإمكانه صنّع تعريفه الخاص بالسعادة حين يشعر فعلاً بأن حياته تسير بصورة جيدة. وذلك لا ينفي كونها متلونة في طبيعتها كما ذكرت، لأنّ الأهداف التي نخطّط لها ثم نحققها تجعل منا أشخاصاً سعداء بالتأكيد، لكن لمدة قصيرة فقط. فالمكافأة المباغته، الخطبة والزواج، الشهادات، شراء منزل أو أثاث، كلها أمور رائعة.. إنّما سرعان ما نتكيف مع وجودها ونعتاد عليها، لتحوّل مع الأيام إلى مجرد أشياء بديهية لا تثير دهشتنا، مما يجعلنا نُعاود الكرة مرّة أخرى في رحلة البحث عن سعادتنا.

قد نعيش أحداثاً جميلة مثل إنجاب طفلٍ رائع، أو قد نعيش ما هو مُعاكسٌ ومُؤلم فيما لو فقدنا ذلك الطفل. فنحنُ نحيا في عالمٍ خارج نطاق تحكُّمنا، وليس هناك للأسف أيّ شيء يمكننا فعله لتغيير هذه الحقيقة. فتلك الأحداث لا تسمح لنا أبداً باختيار نوعيتها، شدتها، درجتها، أسلوبها، أو ألمها، سواء جيدة كانت.. أم سيئة.

وكما قد يقفُ بعض الناسُ عثرةً في طريقنا، يخذلُوننا، يتخلَّون عَنَّا، ويمارسون على عواطفنا لعبة المدِّ والجزر، يتوقَّع أيضاً للأماكن والزمن إجبارنا على الخضوع والانحناء أمامهم وأمام القسوة، الصُّدف، الفُرص، أو حتى الفرح الذي يأتي مرَّاتٍ بلا مقدِّمات. لا ننسى كذلك وقوفنا مشدوهين أمام الكوارث الطبيعية، صناعة الجريمة، التسمُّم، التلوُّث، الإيدز، السرطان، والإعاقات... بالإضافة إلى فقدان السريع والموجع لأشخاص قريبين من أرواحنا، نُحبُّهم، ويُحبُّوننا.

هكذا إذن.. بالرغم من أننا نحيا في عالمٍ عصري ومُتسارع، بدوائر الأقمار الصناعية، الريموت كونترول، العقول الإلكترونية الدقيقة، البرمجة، الليزر، الهواتف الخلوية، مواقع التواصل الاجتماعي، البريد الصوتي والإلكتروني، تقنية النانو، أجهزة الحاسوب والأجهزة اللوحية، وكل ما يمكن تخيُّله من تقنيات.. إلا أننا نظلُّ تحت سُلطة عالم لا يمكننا التحكُّم فيه!!

وإذا كان هوس السيطرة يمنعنا من بلوغ السعادة الحقيقية،

فَلِمَاذَا نَتَمَسَّكَ بِهِ بِكُلِّ عِنَادٍ؟!، لَسْنَا بِحَاجَةٍ لِأَنْ نَكُونَ عَلَى حَقِّ دَوْمًا، أَوْ لِنُبْرَهِنَ لِأَنْفُسِنَا بِأَنَّ الرِّيمُوتَ كَوْنَتُرُولُ مَا زَالَ فِي يَدِنَا وَأَنَّا نَقْدِرُ عَلَى تَغْيِيرِ قَنَوَاتِ الْحَيَاةِ وَمَحَطَّاتِهَا!، هَذِهِ أَحَدُ أَوْهَامِ التَّحَكُّمِ بِالْعَالَمِ الَّذِي نَسْكُنُهُ، وَبِالطَّبَعِ فَإِنَّ هَذَا الْعَالَمَ لَنْ يَسْتَجِيبَ. لِعَقُودٍ طَوِيلَةٍ كَانَ هَدَفُ الْمَفْكَرِينَ وَمُؤَلِّفِي كُتُبِ الْمَسَاعِدَةِ الْذَاتِيَّةِ وَالْبِرَامِجِ الْمَسْمُوعَةِ وَالْمَحَاضِرَاتِ وَوَرَشِ الْعَمَلِ مَسَاعِدَةِ النَّاسِ عَلَى زِيَادَةِ حُجْمِ وَمَقْدَارِ السَّعَادَةِ مِنْ خِلَالِ تَحْسُّنِ الْأَدَاءِ وَتَغْيِيرِ حَيَاتِهِمْ، فَهَمَّ يَعْذُونَنَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ بِأَنْ نَكُونَ مُبْتَهَجِينَ فِي حَالِ اقْتِنَاءِ وَقِرَاءَةِ مُؤَلَّفَاتِهِمْ.

لَقَدْ بَاعُوا لَنَا طَرَقًا، وَخَطَوَاتٍ، مَفَاتِيحَ، شَفَرَاتٍ، أَبْوَابَ، وَفَنُونَ السَّعَادَةِ، وَأَخِيرًا قَدَّمُوا لَنَا «السِّرَّ the secret» و«قَانُونَ الْجَذْبِ» الَّذِي يَحَقِّقُ الصَّحَّةَ وَالثَّرْوَةَ وَالنَّجَاحَ مَهْمَا كَانَ ثَمِينًا أَوْ بَعِيدًا. وَقَدْ وَقَعَ فِي يَدِي الْكَثِيرَ مِنْ هَذِهِ الْمُؤَلَّفَاتِ وَقَرَأْتُهَا بَدَلًا مِنَ الْمَرَّةِ.. مَرَاتٍ، وَفِي أَسْوَأِ الْأَحْوَالِ تَصَفَّحْتُهَا بَعَمَقٍ وَأَضْفَعْتُهَا إِلَى مَكْتَبَتِي.

أَكْتَشَفْتُ خِلَالَ هَذِهِ الرَّحْلَةِ أَنَّنَا بِحَاجَةٍ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ طَرِيقَةٍ لِكَيْ نَحْيَا بِشَكْلِ كَامِلٍ وَعَلَى النُّحُوِّ الَّذِي نَرْضَى عَنْهُ، وَلَكِنْ لَا تُوجَدُ (خِلْطَةُ سَرِّيَّةٍ) تَجْعَلُنَا نَعِيشُهَا سَعْدَاءَ لِلأَبَدِ. النِّهَايَاتِ السَّعِيدَةِ وَالذَّائِمَةِ.. لَا تَوْجَدُ إِلَّا بِخَيَالَاتٍ وَقِصَصِ الْجِنِّيَّاتِ وَالسَّنْدَرِيَلَاتِ وَالرَّوَايَاتِ الْحَالِمَةِ فَقَطْ. الْحَيَاةُ تَكْمُنُ فِي الْوَاقِعِ الَّذِي نَعِيشُهُ وَليْسَتْ فِي الصَّفْحَاتِ، وَالْكَتَبِ.. مَا هِيَ إِلَّا مَمْرٌ نَعْبُرُ مِنْ خِلَالِهِ لِلضَّفَّةِ الْأُخْرَى، أَوْ جَسْرٌ مَعْلَقٌ بَيْنَ الْخَيَالِ وَالْحَقِيقَةِ.

قد يتفاعل ويهتّم قارئ ما بالطريقة التي تناولها آخر عنوان لكتابٍ تمّ تحميله عن طريق الإنترنت، أو تم شراؤه من إصدارات مكتبة ما، بينما لا يرى الآخرون أيّ فائدة تُرجى من مثل هذه الكتب أيّا كان مؤلفها أو دور النشر التي أصدرتها، وليست جميعها على أيّ حال كتباً تستحق التأمل أو الاقتناء. ولهذا رأيتُ من الحكمة مراجعة ما أملكه، واختبار علاقاتي بالكتب التي قرأتها في هذا المجال، هل لديّ حقاً كتبٌ جديرة بالصدّاقة؟؟ هل كانت صادقة معي؟، شاركتني أسراري؟، ألم تحكّم بقسوة على ما مررنا به معاً؟!، لم ترفضني؟ ولم تخن ثقتي؟!.. هل.. وهل...!

أظنّني كنتُ بحاجة لأن أعود إلى هناك، حيثُ تركتُ ورسمت وخططتُ بعض أثر وخربشات ورموز وقلوب ونجمات على الكثير من الصفحات، وذلك حين كنتُ إنسانة أخرى، تعيسة ربما، لكنني لحسن الحظّ لم أتوقّف عن القراءة في خضم تلك الأيام.

هنا.. لا أقومُ أبداً بفكرة التسويق أو الترويج لمؤلف ما بمعزل عن الآخر، ولا أريد لمن يقتنيني أن يظنّ بأنني أريد منه أن يكون سعيداً بعد قراءتي. لا تستعجلوا، ليس لأنني لا أحب أن تكونوا سعداء، ولكن لسبب بسيطٍ جداً، وهو أنني مؤمنة بحق بأنّ جميع النَّاسُ سعداء بطريقتهم.. وبالنسبة وبالدرجة التي تجعلهم يُنكرون ذلك.

كما أنّنا لا نُحاول مطاردة السَّعادة، أو مُحاصرتها بكم هائلٍ من الكلمات، لكن تقديرنا لها سيجعلها تحدثُ من تلقاء نفسها،

كالحبّ تماماً، أو كمُتعة الشوكولاته مثلاً التي لا نفعل شيئاً حيالها، سوى تركها بين شفاهنا وعلى ألسنتنا لتذوب من تلقاء حلاوتها، المشكلة أنّ الكثيرين يريدون تذوق السعادة بالطريقة ذاتها!!.

لم أجد مفراً من فتح ورشة كبيرة داخل أحد الغرف في منزلي، وسُرعان ما انتقلت العدوى للغرف الأخرى، كتبّ تنام على وجهها في كلّ اتجاه، أقلام رصاص مقضومة، أكواب قهوة فارغة، ومشهد يتكرّر بمتابعة الخطط وتبادل الخطوات المقترحة والعبور من صفحات لأخرى.

قد أكون مخطئة تماماً في ذاتي أثناء اختيار الكتب التي أثرت بي وساعدتني.. إلا أنّنا جميعنا بحاجة إلى أصدقاء حميمين، وهؤلاء كانوا أصدقائي في فتراتٍ مختلفة، قضينا أوقاتاً مبهجة معاً، وكانت الكتابة عنهم هي الثمن الضئيل الذي دفعته من أجل أن يكون لي أصدقاء مرة أخرى.

كنتُ أتساءلُ لماذا أُجهد نفسي في كتابة سطور وتعليقات عن نصائح ومقتطفات لكبار المبدعين في مجال المساعدة الذاتية؟!، ولماذا أحملها حسرة إدراج الجهد في أحد ملفات الكمبيوتر التي لن أزورها مجدداً؟! وماذا سأفعل بكل ما كتبتُه وبكلّ الوقت الذي قضيته في تسجيل الملاحظات؟! ولم يخطر ببالي يوماً أن أجد هذا الكم من الكلمات، أو أن أفكر بنشر ما قمتُ به، ولكن يبدو أن الأمر الأهم والأمتع كان الفرح بمتعة الكتابة ذاتها.

خشيتُ من عملِ كتابي كهذا أن يراه البعض مجرد (غول) أو (مسخ) لأنه قد يعني لهم انتقاصاً أو تحريفاً أو إلغاءً للكلمات الآخرين وثيابهم التي بدأتُ بارتدائها، لكنني أستطيعُ أن أجزم بأنني حين قمت بتجربتها في بروفة أولية وجدتها تليق بمزاجي جداً بمجرد أن كتبت أول حرفٍ في هذا الكتاب، البعض منها كان يناسب مقاساتي، والبعض الآخر أكبر مني بكثير للدرجة التي جعلتني أتعثّر بها.

لا أريد ولا أقصد تجاوز ما كانوا يرمون إليه في كتاباتهم.. أردتُ فقط أن أندمج معهم.. أتماسك.. وأتضامن مع ما أحببته فيهم. لقد عجنْتُ حروفهم بأحرفي.. وتقمّصت كثيراً حياتهم قبل ثياب الكلمات التي عشتُ وتعايشتُ معها، ولم يكن هناك داعٍ لأن نفترق كثيراً بتأطير المقولات بين أقواس واقتباسات.

على فكرة.. تزعجني (الأقواس) أحياناً رغم معرفتي بأهميتها، لم أرغب في أن (نتقّوس) أو نُصبح اثنين، ولهذا وجدتُ صعوبة بالغة في عزل كلماتهم عن «خربشاتي» وتعليقاتي، لكنني وضعتُ كما سترون الكثير منها بالداخل، وذلك حسب نصيحة الفيلسوف الألماني «فريدريك نيتشه» حين قال بأن «استشهاداً ممتازاً.. قد يُلغي صفحاتٍ بأكملها، بل قد يُلغي كتاباً بأكمله».

وعلى الرغم من اعتمادي على مفهوم «السعادة» بلونه الموحّد كموضوع لهذا الكتاب، إلا أنني قمتُ بشكلٍ لاشعوري ربما بمزج ألوانهم المُتقنة بلون تجربتي الباهت وشيءٍ من حكاياتي الشخصية.

إذ لم يكن مُمكنًا بعد انتهائي من الكتابة أن أراجع أو أعود لأبحث عن حُرُوفهم وأميّزها عني من جديد، لقد أصبحنا «واحدًا» بمجرّد أن التقينا.. وقد كانوا كائنات مبدعة، جبّارين جدًّا ومسيطرين لهذا الحدّ، ولا أجد حرجاً أبداً من الاعتراف بهذا.

قد لا يحقُّ لي أن أعَمِّم مزاجي، ألبسه وأخلعه على الأشياء أو على غيري من الناس، لكن أفضل طريقة للخروج من ذلك المأزق.. كانت تقديرُ جهود هؤلاء الكتاب هو أن أحبّهم.. وأحترم فرادتهم، وقد جعلني هذا أدخل في مأزق آخر بمحض إرادتي، فحين قرأتهم وتفاعلت مع معطياتهم سواءً على مستوى المضامين أو المشاعر وجدتُ أن لكلّ شخصية، أو لكلّ ذاتٍ طريقها لاستيعاب معاني البهجة والسّعادة.

وكلّما تصفّحتُ كتاباً.. لاح لي (ثوب) تلك الذات التي حاكتها، وتخيلتُ نفسي وقد ارتديته وتدنّرتُ به، حتى وإن لم يكن على مقاسي تماماً، وهذا يحدثُ بشكلٍ أكبر حين نقرأ عن حياة شخصٍ بحثٌ عن السّعادة ووجدَ ولو جزءاً بسيطاً منها.

أمّا الكتابة عن الكتابة ذاتها.. فكانت تعني بالنسبة لي مجرد محاولاتٍ لتزيين ذلك الثوب وكأني قمتُ بإضافة لمساتٍ أنثوية، وقصاصاتٍ من قطع (الدانتيل) المطرّزة أحياناً، أو السّادة أحياناً أخرى.

بالتأكيد هذه الكتبُ لا تختصر كلّ المبادئ التي تُريدها

ونتمناها عن السعادة، إذ نرتطم كل يوم ونواجه مقالاتٍ وكتبٍ تقترح نظرياتٍ وطرقٍ ومناهج جديدة، ولا عجب حيثُ أنه مبدأ تمَّ مُجادلته منذ بدء الخليقة، وسيظلُّ بمثابة الرداء أو التعويذة.

للسعادة إذن حقائقها وجوهرها.. ولكنني لم أهيئ ذاتي ربّما لأملك القدرة المعنوية على الغوص داخلها تماماً.. لأنني لا أمتلكها كاملة، ويبدو أنني كنتُ أتحرّك لأعكس فقط وأظهر كل ما تمَّ حفره في كياني من قبل كائناتٍ غزلت، حاكت، دافعت، رسمت، قصّت، تلوّنت، تواءمت، تقاطعت، واختبرت علاقاتها مع العالم من حولها.

لكل منا قصّته وحالات من الفشل العاطفي أو الاجتماعي، ونصيب من الأخطاء، الهنأت، العثرات، النقائص والسقطات، تهزّمنا أقلّ التحديّات وأصغر المحن. وهناك نُدبة أو علامة في ذاكرة كلّ منا تعبّر عن ضعفٍ ما، أو شقاءٍ كُنّا قد تعرّضنا له... تلك العلامات يُحاول الكثيرون منا إخفاءها عن الآخرين، كالحزين الذي يحاول جاهداً إخفاء دموعه، أو كمن يريدُ التغلب على جفاف حلقة من شدة الخوف.

لا نتحدث هنا عن الندوب الغائرة التي تدمي القلوب كفقدان الإنسان لحبيبه، فهذه الأمور مؤلمة جداً وتحتاج لزمن طويل لتفادي آثارها، ولكن الحقيقة حتى فكرة أن من نحبهم قد يموتون.. قد لا تدمر السبب الذي خلقنا من أجله، لكن فكرة الاشمزاز من ذواتنا، وأنّ حياتنا ما هي إلا إهانة كبيرة.. هي فقط ما يدمر المعنى

الحقيقي للحياة.

عندما نكونُ في كامل صحَّتنا، نعتقدُ أنَّ ما من عوائقِ سوف تواجهنا، إنَّما الحياة علمتنا أن نحمل على ظهورنا تجارب وخيبات تتطلَّبُ إزاحتها والتخفيف عنها أعواماً طويلة. وبين النجاح والفشل.. والبدء من جديد سنواجه سكوناً وراحة ليس بالمعنى الاستسلامي طبعاً، إنَّما هو هدنة أو انتشاء هادئ.

عملية العيش في اللحظة الحالية والقبض على المتعة ليست سهلة على الدوام، لأنَّها تكون كفاحاً، أمَّا الأمر الذي يجب أن نفهمه فهو أنَّ هذا الكفاح لن ينتهي أبداً.

حين نتعلَّم الكثير عن أنفسنا وتُتقنها، ستمكَّنُ من معرفة كيف سنكون حين يعترضنا حادثٌ طارئ، وكيف يكون التسليم بوقوعه مهما كانت درجة صعوبته، حُرقته، حجمه وألمه، ولا يعني هذا أن نكون متشائمين بانتظار الأحداث تلو الأخرى، إنَّما يعني الوعي بمن نكون تماماً، وكيف ستتصرف، وماذا علينا أن نفعل تجاه الأشياء التي لا نستطيع إيقافها، منعها، هدمها أو إذابتها، وعدم السماح لها بأن تستغرقنا، تجتاحنا، تلتهمنا، أو تسحبنا إلى داخل جحيمها. لا يمكننا أيضاً التحكم بمشاعر الناس، وانفعالاتهم تجاهنا أو إجبارهم على استساغة وجودنا أو محبَّتنا، فهذا يعمل كستارٍ يحول بيننا وبين العالم، والحل المقنع هو تركيزنا على حبِّ أنفسنا أولاً وجعلها أكثر سعادة وتقبلاً، فربما أصبح من الممكن حينها جذب الآخرين إلينا، لأنَّهم بالتأكيد لا يرغبون في أن يكونوا بالقرب من

شخص تعيس لا يعرف قيمة ما يملكه.

هذا بالطبع لا علاقة له بالأنانية، ومختلف عنها بقوة.. هو الطريقة التي ستجعل الناس يقدرونا وأيضاً يقبلون بمساعدتنا، لأننا بالمقابل نساعدهم على تقدير وحب أنفسهم عندما يكونوا بالقرب منا.

والإيمان بعدم القدرة على السيطرة على الظروف والناس والحوادث لا يأتي بين يوم وليلة بالطبع. هو رحلة كائن تعتمد على مدى استعدادة لتقبل هذا الإيمان، علينا أن نتذكر فقط بأن بإمكاننا، على الأقل، السيطرة على الطريقة التي نُدرك ونفسر ونستجيبُ بها لهذه الأحداث، وحين أتحدثُ عن الإيمان فأنا أعنيه تماماً. إذن.. ليست العبرة بالأحداث الضاغطة والمؤثرة التي عانينا منها في حياتنا، إنما في الطريقة التي تعاملت بها مشاعرنا مع هذه الأحداث. في الحقيقة الشعور بالخوف هو ما يجعلنا نتمسك بالعادات والمعتقدات الصعبة والقديمة، لكنه قد يكون قوياً لدرجة أن يُربنا أيضاً ويجعلنا نُقاوم أو نتوقّف عن عمل شيء نحبه، ومعظمنا يخاف من حقيقة (الذات)، لذلك لا تُريد الاقتراب منا، حتى لا يصدمننا ما نكتشفه، إننا مُنهمكون وحريصون جداً على المحافظة على ذلك الاحترام الذي نكنه لذواتنا، بعيداً عن نقاط قوة أو ضعف قد تكشف عنها عملية التقرب هذه.

لقد أمضيتُ سبعة أعوام من حياتي.. كنتُ أفكر فيها كيف يمكن لي أن أبدل حياتي، أمضيتهُا في مقعد.. وقاطرة واحدة كانت

تقودني إلى الخلف، سبعُ سنوَاتٍ مني لِنِسْتِ محسوبة، نحن عادةً لا نقيسُ ضَرْبَاتِ السَّعَادَةِ ولا ركلاتِ التَّرجيحِ، هزائمي وحدها تأتي بعد الفرح مباشرة، بينما كان قلبي خاوياً.. ولكنه يَشْتَعَلُ بالضجيجِ. ببساطة أردتُ أن أضع يدي على ذلك المدخل المؤدي إليّ.. أردتُ أن أفكّر بالأشكال الكثيرة التي يمكنني فيها أن أتعرّف على ذاتي، وبالطبع المرأة ليست أولى هذه الأشكال.. ولا آخرها. ولم أجدها صدقاً إلاً من خلال الكتابة التي حررتني.

السَّعَادَةُ فنٌّ، إحساس وواقع ومهارة أيضاً يتطلّب قبل أي شيء إجراءات تتعلّق بطريقة التعبير التي نستخدمها، كتنهّدات، نبرات، نظرات، إيماءات...، ولهذا فإنّ الكتابة عنه بشكلٍ سطحيٍّ أمرٌ مختلف لا يساعد على اكتسابه.

أمّا الرُّؤية النقدية والتحليلية للعبارات فقد تُظهر مدى قناعة الكاتب وإيمانه بهذا الفن، فمن يكتب عن السَّعَادَةِ وهو مؤمن بها كطريقة ومآل للحياة، يستطيع أن يؤثّر في مشاعرنا وإيصال خبراته بشكلٍ محبّب، على عكس من يجادل من منطلقات عقلانية قد يوصل لنا الفكرة وحسب، هذا إن لم تصل شاحبة.

التفاصيل.. لا تكون عادة على غلاف الكتاب، لكنّها قد تشي به أحياناً، وكذلك ارتداء ثوب من (الدانتيل) يتطلّب جرأة كبيرة، لأنّه يفصّل الأجساد ويكشفُ تضاريسها، تفاصيلها، ومفاتها، لكنني اعتمدتُ على خاصيته في الكتابة بشكلٍ كبير حتى تكون شفافة وحقيقية، وقدّر الإمكان لا توارى سوءات الأيام، ولا مباحجها.

غرباءً نحن عن بعضنا البعض ربما.. لكن هاجسنا أنتم وأنا واحد في البحث عن السعادة وضمّتها إلى حياة كل منا، وقد يبدو مناسباً إن ذكرتكم بأنّ كتابة كهذه قد لا تكون انسيابية تماماً، بل فاضحة في كثير من الأحيان داخل مجتمع متمسك بالمحافظة على المرأة بشكل خاص، وعلى الستر، والخوف من المجهول والحكايا والذكريات حتى لو كان ذلك على حساب الحقيقة.

حين قررتُ البدء كيفما يكون، كتبتُ قائمة من عقباتٍ ومشكلاتٍ وثغراتٍ ومصاعبٍ ظننتُ أن جمعها ومواجهتها تفوق احتمالي، ولكن مع الأيام اكتشفتُ شيئاً مريعاً، فكلُّ ما كتبتُه لم يكن سوى الأسهل الذي لا يزيدُ عن كونه ممتعاً. فلقد كانت هناك قائمة أخرى لا واعية تتوارى خلف قائمتي الأصلية، ولم أكن قادرة على تحديدها أو تصنيفها. كنتُ أهرب من الاعتراف بها، حتى لا أضطر للبحث عن الإجابة.

اكتشفتُ مثلاً أنني مصابة بالخوف وأني أخجل من الاعتراف بذلك، رغم أنني لستُ طفلة حتى أشعر بالهلع، والآن.. تأكّدتُ جيداً من الأسباب التي جعلت مني امرأة مرعوبة وهاربة من نفسها على الدوام، إنّها أسباب تتعلّق بالكلفة القاسية والكبيرة التي قد أدفعها مقابل أيّ قرارٍ أتخذه، كمن يضطر أن يتخلّى عن 25 عاماً من حياته من أجل 25 عاماً أخرى لا يعرف مدى حنوّها أو قسوتها. إنّها المجازفة بحياة سابقةٍ مهما كانت قاسية ومؤلمة، إنّها القفزة في الهواء، إنّها الشيء الذي يستحق أن أقوم به، إنّهُ المجهول،

والمجهول بطبعه مخيفٌ ومُفزعٌ، لكنّه في ذات الوقت استجابة طبيعية لأيّ عمل مبدع، أليس كذلك؟!.

ومن منطوق كهذا، عملتُ على ارتداء «السعادة في ثياب الآخرين» وإعادة تصميمها، كمن تُحيك فستاناً لم يكن لها يوماً ولم تختره، ولكن لكي تجعله يناسب ذوقها وقياسها.. فضّلت أن تُضيف إليه لمساتها، كخامة (الدانتيل) الانسيابية التي تحبّها، وذلك بالظهور بها من جديد، لتبدو وكأنّ لم يمسهها بشر من قبل.

لقد انتقيت كامرأة كلماتي التي أواجه بها ما كتبوه من أجلنا، بالضبط كما أنتقي تخريّمات (الدانتيل) ونقوشاته وشفافيّته المتفاوتة في الدرجات. وكانت تكفيني تلك اللبونة التي تميّز هذا النسيج لتساعدني على استخدامه بعدة طرقٍ مختلفة. وكأنّما أردتُ حياة الكلمات.. بجانب الكلمات، ليرى الناس ذاتي الجديدة التي تسكن داخل ثياب الآخرين.

في الواقع.. نحنُ لا نتعرّ عادةً بالأشياء الشامخة، غالباً ما يحدث الارتطام والسقوط على الأرض نتيجة تعرّنا بالأشياء الصغيرة، فلم نسمع من قبل أنّ شخصاً تعرّ بجبلٍ شاهق.

التعرُّ غالباً ما يكون بأشياء، معضلات، صعوبات صغيرة.. تلك التي لا نلاحظها أو التي يصعبُ علينا ملاحظتها أثناء سيرنا نحو أهدافنا في هذه الحياة.. لذلك ربّما علينا أن نتذكر كلّما ارتطمنا بالأرض أنّ السبب كان صغيراً وتافهاً، وأنّ هذا السقوط لا يجب أن

يكون إلى الخلف بل يكون إلى الأمام حتى نستغل فكرة السقوط ذاتها لتقربنا من الهدف.. بدلاً من أن تعود بنا إلى الوراء.

أحياناً علينا ممارسة التضحية بالمتعة القصيرة الأجل من أجل الحصول على نوعيّة أرقى من السعادة وراحة البال. وهناك فرق بين الاستمتاع والرّضا عما نعيشه، فهناك الكثير من المواقف قد نضطر لأن نقوم بها رغم أنّها غير مبهجة، كتعزية أحد الأشخاص في وفاة عزيز له، أو زيارة مريض في المشفى مثلاً، هذه الأفعال تشعرنا بالرّضا على المدى الطويل، حتى لو كانت في لحظتها غير ممتعة، الأكيد.. أن هذا الفعل سيجلب متعة أكبر لاحقاً.

لو استطعنا أن نجعل الكائنات التي نكون بصحبتها أسعدُ وأكثر انسجاماً وطمأنينة فإنّ هذا الحال لن يصيبهم وحدهم.. بل نحن أيضاً سنكون سعداء بذلك، لا أقصد فقط بالكائنات أولئك البشر الذين نعيش معهم، طاقتنا الإيجابية عليها أن تمتدّ حتى للنباتات، أو لأشياءنا الشخصية التي نستعملها، أقصد كل المكان الذي يحيط بنا ونحيط به.

فهالة السعادة وما يختزنها من علامات الرّضا والطمأنينة، تصيب الآخر بالعدوى لدرجةٍ تستطيع أن تتحكم في طاقة الأشخاص حتى وإن كانوا أكبر منا سناً، لماذا رؤية الأطفال تشعرنا بالسعادة! لا أظنّ أبداً أن شخصاً لا يحب الأطفال يمكن أن يكون سعيداً، السعادة فطرية كما هي براءة الأطفال.

أريدُ أن أخبركم بشيء هام. لستُ حكيمة لأكتب عن السعادة

وأناشدكم بها، ولستُ فيلسوفة لأقوم بفعل التنظير والتحليل أو النقد، ولستُ كذلك مستشارة لأقول لكم ما يجب عليكم، كل ما تلمسونه في كلماتي هو خلاصة ما قرأته، وأتقنته وتداولته مع كتبٍ أحببتها وأزعم أنها تبادلني ذات الشعور.

والأهم أنه لم يكن مقررأً أبداً أن يظهر الكتاب بهذه النفحة الشخصية، لكنَّ شيئاً ما أثناء الكتابة أرغمني على سرد بعض التفاصيل كي أقنع نفسي قبل أن أقنعكم بأنَّ هناك ما يستحق المحاولة، وبالقدر الذي أستطيعه، وبالقدر الذي هو مسموح لي به.. فسوف أعمل ما بوسعي لأشاطركم ما تعلمته خلال رحلتي القصيرة.

لم أكتبُ عن السَّعادة لأنني عشتها، إنما لأنني وجدتها واعترفتُ بها أخيراً كأى امرأة في هذا البلد عاشت حياة عادية، وكان لديها طفولة سعيدة ومتألقة، ولكن سرعان ما تحولت حياتي فجأة إلى جحيم لا يطاق، وشعرتُ بأن الألم الذي ينتظرني سيمتد طويلاً ولا يمكنني احتمالها، كنتُ قد كرهتُ الحياة، ودائماً ما كانت صديقتي القريبة تُخبرني بأنني على وشك الانهيار، وأنَّها على الوشك الذي ستفقدني فيه.

وكغيري من الذين يتلقَّون تربية دينية وحنونة، كنتُ أجد أن فكرة التخلص من الحياة ستؤدي بي إلى جهنمٍ أخرى، غير تلك التي أعيشها. ورغم كل ما مررتُ به من مرض وإحباطات وآلام وظلام إلا أنني لم أفقد إيماني يوماً بـ (الحب)، ذلك الكائن المُبهج

الذي يفتح عينيه دهشة، كطفل يكتشف لعبته الجديدة ويوارىها عن الأنظار.

لم يكن لديّ أهدافاً مبالغاً فيها لنوعية الحب الذي أمنحه، أو الذي يجب أن أحظى به، لأنني كنتُ متأكدة بأنني إن كنتُ أستحق ما يحدث لي من ألم، فإن كفّارتي الوحيدة هي مزيد من الحب الذي ما زلتُ أملكه نحو الكائنات، على الأقل نحو أقدام الأطفال أو القطط الصغيرة.

الحبُّ الذي يصارع الغرق، لا بدّ أن يكون شجاعاً.. أن لا يعرف معنى أن يكون جباناً. فالهزيمة بخسارة واحدة أو حتى بعدد من الخسارات لم يكن أمراً يستحق أن أعيشه، كان عليّ أن أنبثق بعد كل إغراق، وبعد كل ضربة حظٍ عاثر.. كان من المهمّ أن أعرف كيف أهتم بالحياة على نحو يقبل الفشل، الغيرة، القسوة، والإهانات. لم يكن مناسباً أبداً أن أشعر الآخرين بالرتاء عليّ، لأنني الآن أرثي لحال من لم يعرف معنى وغرض العيش تحت رحمة الكوارث.

من المؤكد أن الكثير من الأخطاء التي ارتكبتها في الماضي ما زالت قائمة في الحاضر الذي نعيشه. ومن المؤسف أنّه لا يمكن الرجوع إلى اللحظة التي مضت كي نعيشها دون أخطاء اقترفناها. الآن.. أنا على نقيض ما كنتُ عليه من رغبة واستعداد تام للرحيل، الآن أنا متمسكة بدقائق التالية لأستمتع بها، لأعوض جزءاً ممّا فقدته طوال السنوات الماضية.

ما زلتُ أدافع عن وجهة نظري في أنّ القاسم المشترك الذي من شأنه أن يجعلنا سعداء هو (الحب)، ليس بمعناه الرومنسي المجرد أو الممتلئ بالزهور الحمراء والشموع والنظرات، إنّما طريقة استخدامنا الاستثنائية لتفاصيل هذه الكلمة تجاه من نحبهم، والدينا، أولادنا، أزواجنا، وحتى حيواناتنا الأليفة، ويقدر الحب الذي نهبه للآخرين، فإنّ صورته ستعكس على أرواحنا.

هذا الكتاب لا يدّعي، ولا يطمح إلى إزالة الصعوبات والكوارث في هذا الكون ولا اجتثاثها من جذورها. نحنُ لا نتعامل مع المستحيل هنا، ولكنّ مع ذلك قد أكون قادرة على تسليحكم ببعض التجارب والأفكار التي ساعدتني شخصياً على مواجهة ما مررتُ به باقتدار، لقد منعتُ نفسي من تمزيق المزيد من أوراق حياتي وقد تخلّصتُ فعلاً من ثيابي القديمة والداكنة.

لستُ حجر الأساس هنا، كل فكرة طرحتها عاشت في حياة مؤلفها، قبل انتقالها إلى حياتي، وبالتأكيد هم قاموا بتأليف كتبهم لأنها الوسيلة الأجدى في كتابة أفكارهم.. تجاربهم تلك التي استحالت كتاباً دون قصد.

إنّتي محظوظة بما فيه الكفاية لأن أنجو من الموت أولاً، ومحظوظة ثانياً لأنّني وجدتُ طريقة ما أشارك بها الآخرين وأقسامهم ما تعلمته وما قرأته، وأخبرهم كيف كانت الطريق وعرةً وشاقةً.. ربما، والأهم من ذلك أنّني أكثر حظاً من غيري لأنكم سمحتم لي بأن ألمس أياديكم، وأخذكم إلى حيثُ مكاني الذي أحب.

الأعجوبة.. ذات الثدي الواحد

الذعجوبة..

ذات اللذي الواجء

لا أؤمن بأن الأساليب الطيبة وحدها قادرة على إيقاف مرضي ما أو علاجه، يستدعي الأمر أن يحافظ الإنسان على البهجة في حياته مهما كان يعاني منها، وأن يحب معاناته، يتضامن معها، ويقف بجوارها. ومن الخطأ أن نشعر بمسؤوليتنا عن المرض مهما كان بسيطاً، كأن نلقي باللوم على أنفسنا قائلين: لم نغلق النوافذ، لم ندفأ جيداً.. لهذا أصبنا بالأنفلونزا، أو السعال.

ليس المرض فشلاً حتى نلوم أنفسنا عليه، الفشل الحقيقي.. هو عدم قدرتنا على المواجهة، فالأمراض ليست علامة على نقص كفاءتنا في العيش أو السعادة، كما أنها ليست عقاباً على الإطلاق. على المرضى مواجهة تجربتهم الشخصية وفهم الرسالة الرمزية الموجهة إليهم من الداء الذي أصابهم. ما الذي يود أن يقوله لنا؟!، ما الشيء الذي يريد أن يوظنا منه؟! ماذا علينا أن نفعل؟!.. كيف سنجعل تجربتنا مختلفة ما دمننا ما زلنا أحياء لحد الآن؟!..

من المدهش أن نفكر في الآلاف من المرضى الذين تم شفاؤهم من أمراض مستعصية وخطيرة أو مزمنة، كيف لم نسألهم مثلاً عن (طريق الشفاء) الذي سلكوه ووصلوا إليه!!، كل ما عرفته

من بعض الأشخاص الذين مرّوا على عالم الموت وعادوا إلينا..
أنّ حياتهم تغيّرت تغييراً جذرياً، وأصبح لهم أسلوباً خاصاً ومميزاً
في حبّ ذلك العالم.

بل أنّي أتذكّر جيداً تلك الأيام التي تدهورت فيها حالتي
الصّحية ووقعتُ في فوضى جسديّة وطبيّة مُزعجة أدخلتني في
فترةٍ ما إلى قسم العناية المُركّزة بسبب ارتفاعِ ضخْمٍ ومُبالغ فيه
في ضغط الدّم الشرياني والتّهاب حادٍ في الأعصاب، وأذكر أيضاً
بأنّني حين غادرتُ قسم العناية إلى حجرة عادية.. تكوّنت لديّ
الرغبة لأوّل مرّة بأن أعيش حياةً جديدةً. كُنْتُ متأكّدة حينها بأنّه
ليس هناك مَرَضاً يحدثُ بين عشيّة وضحاها، فالآلام.. تحتاجُ زمناً
طويلاً كي تنضج، وتظهر على السطح.

الغريبُ بأنّني كُنْتُ في العشريّات من عمري حين أُصبتُ
بتلك الحالة والتي لم يُعرف لها أيّ سببٍ فسيولوجي أبداً لحدّ
الآن، وللحدّ الذي بقيتُ فيه تحت الملاحظة لأربع سنواتٍ بسبب
تأرجح الحالة بين الهبوط الشّديد في الضّغط وبين الارتفاع المُفاجئ
وبين الاشتباه المُتكرّر في حدوثِ جلطاتٍ صغيرة في الدّماغ، لهذا
تمّ تسمية ما أعاني منه بـ (القَاتل الصّامت) وبالدرجة الأولى لأنّه
يتسلّل ويُدحرجُ الجسد إلى منطقة الخطر دون سابق إنذار. وصحيح
أنّني لم أكن أتمتع بلياقة ذهنيّة أو عاطفيّة أو جسديّة جيّدة، لكنني
استطعتُ على الأقلّ الذّهاب إلى عملي كلّ صباح دون تفكيرٍ في
العواقب.

تعلّمتُ الكثير من «د. سوزان جيفرز/ Susan Jeffers» التي كان أصدقاءؤها قد اختاروا لها اسم «Storm/ العاصفة» والذين كانوا يحبّ يسخرون منها عندما يُصيبها بعض حُزن أو إحباط ويقترحون عليها أوّل الحلول وآخرها: "أذهبِي واقرئي كُتُبِك".

«جيفرز» في كتابها «احتضان المجهول/ Embracing Uncertainty» تُحاول أن تجمّع وتستخدم أكبر قدرٍ من تدريبات الثقة بالنفس العليا، حتّى إذا بدت الحياة صعبة أماننا نحنُ القراء فإنّ كل ما علينا فعله هو أن نمدّ أيدينا داخل صندوق الأدوات التي أعدته لنا، ونتقي منه الأداة الأكثر ملاءمة لحياتنا، كي نجعلها مُغامرة أكثر غنى وقيمة وارتباطاً بمفهوم السعادة.

ولكنّها في ذاتِ الوقت تُحذّرنا من بعض أصدقاءٍ قد يكرهون تغييرنا للأجمل، لأنّهم يُفضّلون لنا أن نعيش في بُؤس وكآبة، ويكفي أن نتأثر بهؤلاء حتّى نُصبح عاجزين عن التعلّم والاستمتاع بِطاقتنا الإيجابية، فلو كُنّا مُحاطين بهكذا أشخاص.. فلربّما قد حان الوقت للبحث عن أصدقاء جُدد.

تزوّجت المُؤلّفة في سنّ الثامنة عشر، وكانت تظنُّ ككلّ فتاةٍ في عُمرها أنّ ذلك الأمير السّاحر سيُساعدها على تحقيق أمنيّاتها، لكنّ أمنيّاتها لم تُكن إلاّ أحلاماً خياليّة للدرّجة التي أدّت بها إلى الطّلاق، ودفعتها فيما بعد إلى عدّة زيجاتٍ بهدف تحقيق أمنيّاتٍ غير مُمكنة، الأمر الذي جعلها تعترفُ مؤخراً بأنّ لا أحد يُمكن أن يُشعرها بالأمان.

وحتى حينما أصيبت بمرض «سرطان الثدي».. لم تتخيل أبداً ما هي النعم التي قد يجلبها شيء خبيث كهذا!!!، إلا أنها وجدت كل النعم في الوقت الذي أخذت على عاتقها مهمة البحث والكتابة رغبة منها في أن تثبت للآخرين وتساعدهم على فهم أن حتى عملية استئصال جزء حميم من أجسادنا.. لم ولن يكون نهاية العالم، بل إنها كثيراً ما كانت تسخر من مرضها وتُخبر صديقاتها بأن زوجها ما زال حتى الآن يُلقبها بـ «الأعجوبة ذات الثدي الواحد».

إن استسلامها لحقيقة أنها مهمما حاولت لن تستطيع منع الحقائق القاسية من طرق بابها.. جعلها تسلك مساراً آخر بعيداً عن الخيالية، مساراً واقعياً إنما أقل قسوة، وأكثر سعادة، لقد أيقنت بأنه لا يمكن أبداً إيقاف مرضٍ أو طلاقٍ أو موتٍ الأشخاص الذين نحبهم، والأهم أنها أيقنت كذلك بأن «اليقين.. هو أنه لا يوجد أي يقين» في هذه الحياة.

كانت «جيفرز» عاجزة في ما مضى عن إيجاد هذا «اليقين» حتى خاضت مغامرة التعرف على أهمية الأجزاء القوية في ذاتها والتي لم تكن تعرف بوجودها لولا خوضها مغامرة «احتضان المجهول»، هي تماماً تعرف نفسها الآن، وتعرف أن أي مجهول سيأتي قابل للاحتضان لا محالة، وكل ما نحتاج إليه هو مد ذراعينا نحوه.. ولفهما حول خاصرته القاسية، لعلها تذوب، لعله ينزوي، أو يمضي.. بعد أن يأخذ من حياتنا ما يشاء، ويترك لنا الجزء الأهم لمواجهة الدنيا.

ذلآ الؤء هو قوؤنا؁ تلك القوؤ اللى سؤءطى مَعزى حقىى لآىانا. وءالما ىؤضح هذا المَعزى سىكون هو اللى سذرف فى الءموع فرءاً على ذلك الإحساس العمىق آءاء أنفُسنا؁ ولقد كان ذلك هو ما شعرت به المؤلفة منذ سنين مضت عىءما آؤضح لها أن آىاتها ئمئل فرءاً كبرىاً للأشءآاص من حولها. لأن الفرح والمآة ىأتىان من كوؤنا مَصدر ءب وعناىة للآخرىن. وكل ما علىنا فقط.. هو معالءة الؤرح الموءوء داآلنا؁ آغىىر الأمور غىر النآءءة؁ البءء عن المعنى وراء المَعاناة؁ والارتقاء آىء ىسوؤ الءب.

فى باءى الأمر الؤءرباء اللى ىقؤرءها الكىتاب لمساعدؤنا فى آءقىق ذلك سؤشبء حلّ لغزٍ لأءبىة غىر مكؤملة؁ نءاول آرؤب أؤزائها واكؤشاف المكان الصءىء لكل ءؤء؁ ولكن إن نظرنا للآىة بهذا الشكل آماماً.. فسؤصء آىانا رءلة مؤبىرة من الاستكشاف بءلاً من اعآبارها آءاءاً آارءة. فالءءمة تقول بأن كل الأمور الجمىلة والسعىة صعبة.. وبعىة المنال؁ وأن الأسهل ءوما هو العىش بآعاسة داخل الؤروء.. ولىس آارءها.

نحن نعىش فى عالم من الأخبار السبىة هذا صءىء.. وهذا بالضبؤ ما ىءعلؤ الؤؤكىر فى المؤسؤبل صعباً لأنه مغلؤ بـ (المءهؤل)؁ وهذا المءهؤل.. هو الذى نؤوق بأنه سىكون سبئاً فى العالب؁ ولذاء السبب أىضاً؁ فلا بء أن كل منا لءبه قاءمة من الكوارؤ المفضلة؁ وهذه القاءمة آءعلنا أىنما نظرنا.. لا نءء سوى أءطارٍ مءءقة كطعام ملؤ؁؁ ءواءء على الطرىق؁ أعمال إرهاببىة؁

أمراض مُميتة... الخ، كلُّ منها يستحقُّ أن تُوليه اهتمامنا، ولكنَّ السؤال الآن: أين ذهبت الأخبار المُبهجة؟!، أو أين اختفت؟! .

عندما يرتدي الأطفال في الحفلات التنكريَّة أزياءً وأقنعة لُمويرٍ مثلاً، أو وحوش، جنِّيَّات، سَاحرات، أو مصَّاصي دماء فإنَّهم سيخافون من بعضهم البعض حتَّى وإن كانوا أصدقاء أو معروفين. وهذا يُشبه تماماً ما يحدث لتعبيرنا عن المخاطر المُحتملة التي نُحدِّث بها أنفُسنا من حينٍ لآخر، إنَّها تُضخِّم الحُزن، وتجعل المجهول مخيفاً، ليس فقط لأن طبيعته كذلك.. بل لأننا ألبسناه زياً مختلفاً نحنُ من اختاره له، للدرجة التي أصبحنا نخشى من المُستقبل، ذلك القناع المجهول الذي تَسببنا به نحنُ، وليس لأيِّ سببٍ آخر.

بالمُناسبة.. إنَّ الأخبار الجيِّدة مَوْجودة بِشكُلٍ لافت، إنَّما لا يُمكننا أن نراها في ظلِّ فوضى الأفكار، فعقولنا تُثرثر بلا توقُّف، وتقصُّ علينا قصصاً مأساويَّة عن حياتنا.. وحياة من نُحبُّ، وهذا التَّفكير يسلِّبنا الكثير من المرح والمُتعة، ورُغم أنَّه من الحكمة أن نتخذ تدابير وقائيَّة لحماية أنفُسنا ممَّا يحدث في هذا العالم.. فسيكون من الحكمة كذلك فهم بأنَّ المسألة ما هي إلا (لُعبة تخمين)، من الذي يلبس زيَّ الوحش؟، ومن ذلك الذي يرتدي زيَّ المُهرِّج!!؟.

في الحقيقة حياتنا رائعة بالفعل ونحنُ "نأكل طعاماً جيِّداً، متوسِّط عُمر الإنسان أطول من أيِّ وقتٍ مضى، من المُمكن السيطرة

التخلص من الأغراض القديمة مهما كانت بالية، لكنها في الحقيقة لا عمل لها سوى أنها تُعيقنا من المُضيِّ قدماً، ولكي نكون أكثر خفةً وأسرع وصولاً نحو أهدافنا، فعلينا أن نجعل الماضي يتأمر معنا، يكون لصالحنا، لا أن يكون عدواً يعمل ضدنا. فكلُّ (كَارِثَة) نلتقي بها قد تكونُ (هبة)، وداخل كلِّ تجربة وجدنا درساً، معرفة، وكثراً.. جعلنا أكثر حكمةً وأكبر قيمة. لنخلق مُجدداً أنفسنا، ونبرر للحياة ما تُعطينا لنا، ثم نُنيرها بهذا اليقين والتفاؤل.

يُمكِنني أن أقول بأنني احتملتُ وحدي الكثير بسبب إصابتي بمرضٍ غير مفهُوم، وعانيتُ أكثر من الآثار الجانبية للأدوية والمُسكِّنات، وكنتُ أقول لأمي لا أصدُق كيف ينتهي الأسبوع وكأنه مجرد ساعات قليلة!! لأنني لم أكن لأستيقظ.. إلاً لأعود للنوم مجدداً، وإن استيقظتُ فعلياً أن أحتسي العديد من أكواب القهوة المُركزة حتى أنجز أعمالِي بسرعة وبكفاءة ودون أن يشعُر أحد بأنني لستُ قادرة على التركيز أكثر من ساعتين في اليوم، ولكنني تدريجياً أتحتُ لحياتي مزيداً من الفرص والرعاية، والأهم من ذلك فعلاً هو.. أنني شُفيتُ الآن تماماً.

لم يحدث الشفاء فجأةً بالطبع.. إنما لم أعد في هذه اللحظة مُصنَّفة ضمن المرضى المُصابين بأمراض مزمنة، لم أعد بحاجة إلى طبيب يُراقب حالتي الصحية باستمرار، أو يأمر بإبقائي في المستشفى أو العناية الفائقة حتى يتمَّ تعديل وضعي الصحي واجتياز مرحلة الخطر.

لا يتعلَّق الأمر بأيِّ مرضٍ أصابنا ولا بالموت ولا بالخسارة، ولكنه يتعلَّق بالحُبِّ والشِّفاء على ما أظنُّ. هذا التحوُّل في حياتي جعل الكثير من الأطباء يقفون متأمِّلين كيف يحدث ذلك رغم تطوُّر الحالة في فترة من الفترات، ورُغم إصرارهم أيضاً على عدم إيقافني لكميَّة الأدوية الهائلة والمُبالغ فيها يومياً من أجل المُحافظة على ضغط متوازن بعيداً عن أيِّ مُضاعفات أو إغماءات أو تجلُّطات. من العسير أن نُكافح مَرَضاً دُونَ أن نُحِبَّ أنفُسنا، ولا بدَّ أنني بالغتُ في تلك الأيام في تدمير نفسي وإهمالها وأسرفتُ كثيراً في الكَبْت والاستسلام، ولكنني آمنتُ في تلك الحُجرة من المُستشفى.. وبعد أن فتحتُ عينيَّ مباشرةً بأنَّه لا تُوجد أي علاقة في العالم تستطيع أن تجعلنا نشعرُ بقيمتنا وجدارتنا إذا كُنَّا نجهلُ قيمةَ أنفسنا. وربِّما كانت هذه الفكرة هي أولى حلقات الشِّفاء.

إنَّها دعوةٌ إذن لاستِغلال المَرَض وتوجيه حياة المَرَضِي من جديد نحو الحُبِّ ومُلامسة العفو وفتح الأبواب لاستِقبال المعنى لوجودنا ورسالتنا التي خُلقنا من أجلها، أو اكتشاف الطُّرق التي تُؤدِّي إلينا. ولعلَّ المَغزَى ممَّا أقوله هنا هو أنَّ المَرَض يغيِّر الحياة دائماً، سواءً بقيتْنا على قيداها أم غادرناها.

في فصل «إدراك الخير» من كتاب د. «جيفرز» هناك اقتباسٌ رائعٌ لمعلِّم الزنّ «ماساهايد» يقول فيه: «لقد أدَّى الحريق إلى انهيار سقف منزلي.. الآن أستطيع أن أرى القمر بوضوح»، يا له من أمرٍ يبعثُ على السُّمو والحِكمة حين ننظرُ إلى الخسارة على أنَّها طريقة

جديدة للبحث عن الجَمال، عن العطايا، عن الخير.

إنَّها الطَّريقة التي نَكُونُ قد قَطَعْنَا بها شَوْطاً كبيراً في «احتِصَانِ المَجْهُولِ». وفي المُقابل «عِنْدَمَا لا نفْهم الدَّور الذي لعبته تجرُّبه ما في نموِّنا.. فَإِنَّا نُسمِّيها: خبرة سيئة». وهنا تقترحُ عَلَيْنَا الكاتبة وضع كلمة (مُتعة) مكانَ كلمة (الْحَظَر) كُلِّمَا أمَكَّنَّا ذلك.

بالطَّبع.. هناك أوقاتٌ يَكُونُ من الضَّروري فيها لفتُ الانتباه بوضعِ إشارة: (أمامك خطر)، إلاَّ أَنَّهُ لا بدَّ أنْ نكون مُمتنِّين للشَّخص الذي صَنع (لافتة) كهذه من أجَلِنَا. العديد من النَّاس سيبلُون بلاءً حسناً إنْ كانوا يمتتَعون بِصُحبة ورفقة جيِّدة أو شريك يُلهمهم ويُساعدهم دوماً على شَحْن طاقاتهم. وهذا لا يعني الاتِّكال على الآخرين أبداً إِنَّمَا يعني الامتِنان لوجودهم بالتأكيد.

كَمَا أنَّ الطَّلَاقَ أو موتَ أحدِ الأحبابِ أو مَرَضهم، أو الفشل، الألم، المُعاناة، أو الإفلاس، أو كَافة المِحَن التي تُشعرنا بأنَّ الحِياة لا قيمة لها، هي ذاتها الأوقات التي عَلَيْنَا فيها أنْ نستَجْمع قُوانا ونُنصِت إلى صَوْتنا الداخلي، وتتخذ قراراً بِشأنِ وُجودنا وعِلاقتنا بالحِياة التي نَعيشها.

لا يُمكننا أنْ نَصِف الألم الذي نشعرُ به أحياناً حين نجدُ أنْفُسنا في وَسَط ظُرُوفٍ مُربِعة تطوَّقنا من كُلِّ جانب، إِنَّمَا طُرق البحث والاستكشاف هذه لا تَكُونُ لها أيِّ قيمة.. إلاَّ إذا استَخدمناها وقت الأزمات. لذا تعدُّ طاقة اللُّوم من الطاقاتِ التي تزيدُ الموقفَ سوءاً، ولكن حين نتوقَّف عن التَشكِّي، ونجدُ طريقاً أضْعنا، ونبدأ في

التعامل مع ما ألمَّ بنا، فستأخذ الحياة هنا مجرى آخر، يُمكنها أن تصير العامل الرئيس الذي يُساعد على تهيئة ظروف الشفاء. لهذا فإن «ارتداء العالم كشوب فضفاض».. هي الصورة البلاغية المُفضلة لدى «جيفرز»، حيث توفر لها مساحة أكبر للحركة والحرية، وبدلاً من التفكير في أن أحداً «سَيَسحب السجادة من تحت قدميها».. فإنها تعلّمت جيداً ودون أن تقع.. كيف ترقص فوق سجادة متحرّكة».

ولأننا جزءٌ من «الطاقة الكونية universal energy»، فإن طاقتنا البشرية لا تعرف مسافات، ولا تعرف أزمنة، ولا أماكن. نحن كبشر أكثر تعقيداً من تقنيّة الحاسوب والإنترنت التي يُمكنها أن تتصل بأي شخص آخر لديه اتصال بالشبكة اللاسلكية حتى لو كان يبعد عنّا آلاف الأميال. فلماذا نخشى أن نتبع الرسالة التي يرسلها إلينا عقلنا البديهي «الفطري» الذي هو مُقدّمات ضرورية للبرهان العقلي. ألا يحدث كثيراً لو أننا فكّرنا بشخص ما أو تذكّرناه وتفاجاناً بعد قليل برويته أمامنا؟! ببساطة إنَّ الكاتبة تنصّحنا أن نستمع للهّمسات التي تُداعب آذاننا، أن نتدرّب على إتباع العقل البديهي، فإذا سمعنا همسة تُخبرنا بأن ننظر إلى اتجاهٍ مُغاير، أو نتصل بصديق لم نره منذ زمن.. فلنفعّل ذلك على كل حال.

«لماذا علينا معرفة الأحداث قبل أن نعيشها؟، أليست معرفة نهاية الفيلم السينمائي تُفسد مُتعتة؟؟»، هذا هو السؤال الذي تطرحه علينا «جيفرز» في مُقابل شغفنا باكتشاف المجهول، وهو الطريق

التي يجب أن نُفكّر به في قصّة حياتنا، وحتّى حين نقرأ (اعرف حظّك هذا الأسبوع) فإنّنا نلاحظ أن كل ما نزرعُ في سماعه هو أنّنا سنقضي أسبوعاً مدهشاً، أو نتلقّى ثروة أو خبراً ساراً، وعدا ذلك فإنّنا لا نزرعُ في سماعه.

وما لا نتمنّاه في الواقع.. سيحدثُ بجانب الأشياء التي نتمنّاه، وهذه هي طبيعة الحياة، فإن كُنّا متأكّدين بأنّ أمراً ما سيكُون على غير ما يرام فنحنُ في الواقع سنعمل على أن يكون كذلك. كل شخص منا يخلُق مُستقبله بأفكاره، فالفكرة طاقة كما أثبت العلم، وممكنها التأثير فيما حولها من أشياء، وكلّما زادت قوة هذه الفكرة زاد تأثير الإنسان، لهذا إن لم تُسيطر على أفكارنا.. فهذا يعني بأننا نفع تحت سيطرة الآخرين، وحينما يُسيطر علينا شخص ما.. فإنّنا بالتأكيد نقومُ بمنحه مفاتيح مستقبلنا.

على أيّ حال.. لسنا بحاجةٍ إلى كل من أنظمة العرافين والكهنة والتنجيم لإخبارنا كيف سيكُون المُستقبل.. لأنّ أفضل طريق لتوقُّع المُستقبل هو أن نخلقه، أن ننمو من خلال الحاضر، وأن نتوقُّع الأشياء كما نريدها أن تكون. فالأحداث، المخاطر، المُصادفات، والظروف يتمُّ خلقها حسب أفكارنا حولها. وأمّا وعينا الشخصي بهذه الأفكار فقد يُجنّبنا إيّاه.. أو قد يُعمِّقها داخلنا.

إنّ الجيّد والرديء، المُشكلات والهُدوء، الصُّعود والهُبوط، الأعلى والأسفل، الخير والشر.. هي مُتناقضاتٌ وأجزاء هامةٌ لتدفُّق

ولو لدقيقة.. وهذا الوهم يُصبح يوماً عن يوم أكثر إرهاقاً، وتعباً. يندو جلياً لكل شخصٍ ذاق معنى الحب أنه لكي يُوجد «حب» حقيقي فإنه من المفترض أن يكون هناك نقيضاً مباشراً له، ولكن علينا أن نعي جيداً بأن هذا النقيض ليس هو «الكراهة» أبداً، إنما كل ما لا يكون حباً هو ما يمكن تسميته بكل جدارة بـ «الخوف». ففي ذات اللحظة التي خُلق فيها شعور الخوف، صار ممكناً للحب أن يكون موجوداً كإحساسٍ يمكن الشعور به.

لا يمكن تسمية الأشياء بالكارثة أو بالحدث المبهج، إلا في حال أننا كنا شاهدين عليها. حتى أن الموت قد لا يكون كارثة في حال أن الشخص أنقذ أرواحاً لا عدد لها قبل أن يقضي نخبه، كذلك الحياة ليست دائماً حدثاً مبهجاً إن كانت كلها آلام، مرارة، عذابات وجراح. علينا فقط الابتعاد عن الصاق التهم والإدانات بما سوف يحدث أو سوف يكون.

وفي الواقع.. المصير أو المجهول ليس دائماً شيئاً خطراً نخاف وقوعه. بل إن الحماقة هي التي تجعلنا متمسكين بالأشياء والطرق المألوفة، ظناً منا بأنها توفر لنا الطمأنينة، بينما لا شيء يمكنه أن يجعلنا مطمئنين... سوى الموت.

أحييت كثيراً استشهادها بقصة بعض المعلمين الروحانيين الذي يقلبون فناجين الشاي رأساً على عقب قبل ذهابهم للنوم كل ليلة، وعندما يستيقظون يُعيدونها إلى أعلى مرة أخرى وهم يُتمتمون «لا زلنا هنا.. على قيد الحياة». هذا ربّما ما جعلها تقترح

في كتابها أحد الأفكار التي بدت لي حزينة جداً إن طبقتها رُغم صحتها.. وهي أهمية الاقتراب من أشخاص يؤثون بالفعل، حتى يُمكن التعلُّم من خلالهم كيف يُمكن للحياة أن تكون قصيرة وزائلة. ولكن قبل أن نشعر بالتناغم مع فكرة الموت، علينا قبلاً معالجة الجُروح التي تسببنا بها للآخرين، لأنه بالتأكيد هناك الكثير من الأشياء التي نودُّ إكمالها قبل أن نودَّع شخصاً نُحبه.

لتذكّر دوماً بأنَّ المُتعة تكمن في الصعوبة، وأنَّ نتيجتها مثلاً من كسر عادة (سيئة).. فهذا أمر مهم للغاية، لأنَّ الأشياء التي نتمسك بها تمنعنا من الحصول على الأشياء التي نريدها فعلاً. فجميعنا يعلم أنه من السهل أن نكتسب العادات.. بينما يصبح من الصعب التخلص منها. بينما الأمر الأكثر تفاقلاً هو أنَّ العقل الذي تعلم هذه العادة بإمكانه أن يتخلص منها بنفس الأسلوب. و«جيفرز» تقصد أسلوب (التكرار)، تكرار الكلمات التي نقولها لأنفسنا يوماً بعد يوم والتي تتراكم داخل عقلنا اللاواعي.

التحلي بالجدية وبالقوة يجعلنا نتحكم بالناس والأحداث، إنما القوة التي تعنيها.. هي حالة من الوعي تجعلنا نعرف كيف نعالج كل ما سيأتي، لا أن نُوقفه. وحين قالت بأنَّ «من الحماقة واللامعقول أن نُعطي ثقتنا الكاملة لإنسان آخر» فكانت تعني أنه لسبب ما.. قد لا يكون هؤلاء الأشخاص حولنا عندما نحتاج إليهم، قد تتغير علاقتنا بهم، تتدهور، أو تتلاشى في أي وقت. حينها إن فقدناهم سنكون قد فقدنا بالتالي أنفسنا.

وهذا ربّما ما يجعلها تتساءل من جديد: «ما الذي يجعلنا نبحث عن شخصٍ نثقُ به ليُعالج ما نتعرّض إليه؟»، حتّى حُبنا، عَشقنا، وغَرامنا.. إن كان مُتوقِّفاً على حاجتنا للشخص الآخر فإنّ الحاجة عادة ما تنبع من الخوف من أن نحتاج حبيباً أكثر ممّا يحتاجنا. ويُمكنني أن أوكد لكم أنا أيضاً، أن في هذا السِّياق بالذات.. لا يُعتبر هذا المعنى سيئاً أو أنانياً، فعدم اعترافنا بذلك، وعدم فهمنا لأنفسنا، لقلوبنا، لمشاعرنا، لأهدافنا، رغباتنا، ولوظيفتنا التي نقوم بها، سيدفع الآخرين بعيداً عنّا، والجهل بنا سيمنعنا من إقامة علاقات ناجحة مع أولئك الذين يعيشون حولنا، وفي عالمنا. في الواقع إنّها مُؤمنة بأنّه لو كُنّا أقوىاء بما يكفي فسنبحث عن هذا الشخص بداخلنا، نحنُ نجعل من أنفسنا نُعساء إنّ اقتنعنا حقاً بأنّ ما يعتقده الآخرون بنا أهم بكثير ممّا نعتقده نحنُ، بينما وصولنا إلى فهم ذواتنا يسمَحُ لنا باحتِضان كل ما يحدث.. أو سيحدث. ببساطة علينا أن نفتح ذراعينا لاستقبال الآتي.. أن نحتضن المجهول.. وبحبٍ نتعايش معه وفي أحضانه.

لقطائ

حول السعادة المأءملة

لقطات

حول السعادة المُحتقلة

نمتلك عادةً نزعة جَوَانِيَّة نحو العَظْمَة الشخصية، لا تظهر هذه النزعة على سطح حياتنا اليومية ولا تطفو عليه أبداً لأنها دفينية وباطنيَّة، وعلى الرُّغم من ذلك فإنَّ الدُّنيا مليئة بأناسٍ لا يعرفون كيف يوجِّهون دَفْتَهُم، بل يتركون عقولهم لتتخيل وتنتج صُوراً ذهنية بمَحْض الصُّدفة، تتراكم، تحتشد، تنساق مع الظُّروف الرَّدِيئة، فيستسلمون للرَّتابَة، وتتهافت حياتهم دون أن يُدركوا أسلوب أو مفاتيح توجُّه كيانهم نحو هذه النَّزعة.

لهذا كما يقول «م. ر. كُومباير» مؤلِّف كتاب «هيا نساعدك» والذي ترجمه للعربيَّة المُحامي «حليم نصر». إن أردنا تحقيق (العَظْمَة).. تلك التي نملكها في دواخلنا أصلاً، فلا بدَّ أن نرى أنفسنا دوماً في (هيئة عظيمة) وناجحة، وأن نطبَّع هذه الهيئة مراراً وتكراراً على مرآة عقولنا، لتنعكس على واقعنا شيئاً.. فشيئاً من خلال صُورَة ذهنيَّة لما نريدُ يوماً أن نكونه.

ليس في الأمر أيُّ شيء غريب أو غامضٍ أو معقَّد أو ذي صعوبة في الكتاب، فالأساليب المجرَّبة للنجاح والواردة فيه، هي بكلِّ بساطة، قوانين كونيَّة مُنتظمة لا تُعدَّل ولا تُبدَّل، لا تُخطئ

ولا تقصّر أبداً، هي تمرينات سهلة يُمكن مَمارستها يومياً، لكنني لم أستطع من خلال كتابتي هذه أن أستوفيتها جميعاً، فالكتاب يحتوي على 93 فصلاً وقُرابة 500 صفحة، لهذا ارتكزت هنا على قانون واحد تقريباً، وهو القانون الذي تنطلق منه بقية القوانين الأخرى، والذي يتلخّص في أهميّة (الأفكار) التي يُمكن أن تتجسّد إلى وقائع ملموسة من خلال تفعيل طاقة العقل، ذلك العقل الذي يمتلك القوّة لدفعنا وتوجيهنا نحو الفرص المتّصلة بما نتمنّاه ونحلم به. وليس المطلوب هو خلق الشيء الذي نُريده، كلُّ ما علينا هو.. أن نكتشف أنّه موجود، وأنّه بانتظارنا.

بالطبع نحنُ نتحدّث هنا عن الصُّور التي تحمل حُلْمنا وهدفنا والمكان الذي نوذُّ ونتطلّع أن نكون فيه مستقبلاً، وربّما عليّ أن أوكّد بأنّ المؤلّف لا يتحدّث أبداً عن الصُّور التافهة أو تلك التي تبدّد الجهد بلا طائل. هو يتحدّث عن الصُّورة الذهنيّة التي تُنتجها عقولنا وتقرّر مصير المُستقبل، إنّها تُقودنا إليه، وتجذب إلينا الفرص، العلاقات، المُصادفات، الوسائل، الأشخاص الذين نحتاجهم ليسهلوا أمر وُصُولنا لأهدافنا. ولكنّها بالطبع.. لا تكون أبداً للأشياء التي لا نُحبها، ولا للأشياء التي يمتلكها غيرنا، بل هي صُورة خاصة بنا وحدنا، ابتكرناها، رسَمناها، عدَلناها، وربطناها بقوة بالأيام القادمة التي سنعيشها. هذه الصُّور "عبارة عن أفكارٍ تتزاحمُ بغزارة على الذهن، ويجري تسجيلها وطبعها، بِشكلٍ دائم على صفحة العقل الباطن". والذي يعتبر جهازاً للإرشاد والتوجيه

في الحياة.

وبناء عليه.. فإنَّ الأولوية الأولى لإرضاء نزعتنا الباطنية الدفينة نحو العظمة الشخصية والتي قد لا نكون على وعي بها أو بوجودها، تقتضي بالضرورة امتلاك صورة ذهنية عن أنفسنا، مُطابقة لما نريد أن نُصبح عليه من حال. ثمَّ مُحاصرة العقل بها حتى لا ندعُ مجالاً للصُور الواقعية المُحِبطة واليائسة للاستمرار والتمركز فيها. ولكن لنتبه جيداً بأننا لا نستطيع أن نتخيّل صورتنا المُستقبلية ونحنُ نكون أو نفعل خلاف ما نتخيّله. فكثيرٌ من علماء النفس يؤكّدون: "كل امرئ لديه صورة يتصوّرُها عن نفسه، ولن يستطيع في النهاية إلا أن يُصبح نسخة مُطابقة لهذه الصُورة". وبالتالي لا يمكننا أن نُفكّر بالفقر فنحصلُ على المال، أو أن نُفكّر بالحُب ونشعرُ بالكرهية. المُشكلة أننا نتبنّى كثيراً فكرة أننا وُجدنا في مكان ما وانوجدنا بطريق المُصادفة، وهذا ليس صحيحاً، هناك من يرمى أحلامنا ويحقّقها، هناك من يُحبُّ الإلحاح في الدُعاء ليعجّل بالإجابة، دعوني أخبركم قصة شخصية أثرت على مجرى حياتي، حين كنتُ أظنُّ بأنني ضحيةٌ لعدّة عواملٍ جعلت من حياتي فشلاً وانهماماً ومرّضاً لا يُطاق، ولكن بعد أن قرّرتُ الإنصات لما أقرأ، ومنذُ اللحظة التي آمنتُ فيها فكرة أنني لم أعد ضحيةً، بدأت تتلوّن أيامي من جديد بعد أن اعتدّت على لونها الكالح والرمّادي.

منذُ بضع سنواتٍ مضت.. وبسبب العديد من الظروف القاسية.. اضطررتُ إلى ترك منزلي الذي أسكن فيه وانتقلتُ إلى

شقة صغيرة جداً وضيقة ولكنني أرغمتُ على دفع إيجارٍ ضخمٍ مُقابل الأمن والسلامة والخصوصية التي كانت تتمتعُ بها، حيثُ كان يُهمُّني جداً خاصةً في مُجتمع كـ (السعودية).. محافظُ جداً ومنغلقُ بأن يكون المكانُ مفعماً بالحراسة الليلية المشددة وكاميرات المراقبة الخارجية.

وخلال العامين والنصف التي قضيتها في ذلك السكن كنتُ مُجبرةً لأن أبحثَ عن منزلٍ متوسط الحجم والمساحة للتملك بحيثُ أستطيع شراؤه بدلاً من دفع إيجارٍ باهظ كلفني ميزانيةً ثلاثة أعوامٍ قادمة. وفي كلِّ يومٍ من تلك الأيام.. وبعد انتهاء دوامي في العمل أكرسُ جزءاً كبيراً من وقتي لرحلةٍ بحثٍ مُفضَّلة بين الأحياء السكنية، وجدتُ خلالها منزلين يُشبهونني تماماً، وأحبتهما فعلاً، لدرجة أنني زرتُهما مراراً وتكراراً، وعملتُ على معالجة مساحتهما وكافة أبعادهما بطريقة تستغلُّ جميع عناصر التصميم على نحو جمالي يُساعدني على تخيلهما بعد أن يكتَمِلا ويصبحُ أحدهما ملكاً لي.

أذكر أنني أدتُ صلاة الاستخارة داخل حُجراتهما على مرأى من الحراس والعمال ودعوتُ أن يوفقني الله واختار الأفضل بينهما. ثمَّ بدأتُ رحلة أخرى بين المصارف والبنوك أبحثُ عن قرضٍ بنكي، أو تمويلٍ عقاري لأتمكّن من شراء أحدهما.. والانتقال بأسرع وقت ممكن قبل أن يُحول حَوْل جديد.

المُضحك.. أنني لم أكن أعرفُ شيئاً عن عالم العقارات، ولا

الأرقام، ولا البنوك، كل ما أعرفه بأنني أرغبُ في شراء أحد المنزلين وتخفيف الضَّغط المَالِي والأعباء الأخرى المُتراكم. ولذلك تَلَقَّيْتُ الصَّدمة مُقابل رومانستيي الفائضة.. حيثُ لم يكن ممكناً طبعاً بقيمة القرض الذي منحني إياه البنك أن أشتري نصفُ.. أو حتى رُبْع منزل.

كنتُ أحكي لزميلاتي اللاتي كنَّ يستغربين من خيالاتي غير الواقعيَّة وأوهامي ومخططاتي، ويطلبن مني أن أُعدِلَ عمَّا أفعله، أو أن أُلجأ لمساعدة أحد من أهلي، أو أن أفكِّر بمكانٍ مُناسبٍ مقارنةً بإمكانياتي ولكنني لم أجد كثيراً الاهتمام بالرَّايَات الحمراء والمخاوف التي كانوا يرفعونها حرصاً عليّ، بل واصلتُ جنوني وتهوُّري وناقشتهن في مخطَّط المنزلين، وبكيفية عمل التغييرات على كلِّ واحد منهما.

كيف ستكوُن كل حجرة، وكيف سيتمُّ صبغُ الألوان والجدران والأبواب، الأرجوحة المتدليَّة في الفناء الخلفي، التوافذ المُسرعة على الشَّاطئ، شاشة التِّلْفاز الضخمة، السِّتائر المتحرِّكة والثابتة، أقمشة الشِّيفون السَّادة، الدفء، الضَّوء، الأنتيكات الشَّرقية، الدانتيلات المَساحات، المقارن، أقمشة التنجيد... الخ، بصراحة كنتُ أتصوِّر صُوراً ذهنية ذات تفاصيل دقيقة كما تعلمتها بالضَّبْط أحياناً بوعي مني وأحياناً بلا انتباه، الصُّور كانت عميقة ومتكررة، وكنتُ أنصتُ لما أريده حقاً، وأتخيَّل حتى حركاتي داخل الممرَّات والحديقة.. وبين الحُجرات.

في تلك الفترة قرأتُ بحثاً علمياً أثبتوا فيه بأنَّ لدينا خمسة ملايين خلية عصبية في أجسادنا في حالة استعدادٍ وتأهبٍ لأن تعمل وفق الخطة التي رسمناها لها، «أليس رائعاً أن نمتلك خمس ملايين عامل يُساعدوننا في بناء منزل!!». يبدو أنَّ أمنيّاتنا هي جزءٌ هام من ذواتنا، إنَّها مثل أعيننا تماماً لا ينبغي أن نُغلقها طوال الوقت، ولا أن نُبقها مفتوحة كذلك، يجب أن نسمَح لها بأن ترمش، أن تنام وأن تحلم أيضاً.

أتذكّر بأنَّ أصعبُ ما مررتُ به في تلك المرحلة هو ما يُطلقون عليه (خشبة المشرح) أيّ ذلك الموقف الذي ينبغي فيه المحافظة على هويّتي، مظهري، ومكانتي الاجتماعيّة، وعدم نسيان النصّ والسيناريو أن أبتسم في وجوه النَّاس والأمّهات والأطفال والعملاء، حتّى عندما يضيّق بالصرخات صدري.. لم يكن بوسعي أبداً التذمّر بصوتٍ عالٍ.. أو لم يكن هناك من يسمّعني، أو ربّما عانيتُ من حالة صمتٍ لا علاج لها، أو حالة (تمثيل) فاقعة اللّون ومُبهرجة تُوحى للجميع بأنَّ كلَّ الأمور ما زالت على ما يرام.

تعرّضتُ لانتقادات كثيرة على الدوام لأنَّ الشّيء الذي أُرغبُ به سخيّفٌ ومُستحيلٌ من وجهة نظر الجميع، وقد كان من المُفترض أن أتنازل خاصةً مع هذه الإحباطات ومع ورغبة أهلي في أن أكون بقربهم وأن أترك عملي الذي أعيش له ومن أجله وأعودُ للسكن معهم في مدينة أخرى. وقد ظلّت هذه الحافّة كمبدأ (مُواجهه الأوقات الصّعبة)، أقصد أن تكون الأفكار السّلبية التي تأتي من

الآخرين مدخلاً لما نريد أن نقوم به، وليست عثرة لا يمكن اجتيازها أو ركلها.

دائماً ما يصعب الفرار فعلاً من واقع أن الحياة مليئة بصور إحباطات وفشل وأحزان ومُشكلات وآلام سرعان ما تتحوّل بسرعة هائلة إلى صور ذهنيّة غير مُناسبة، لكن ليس بالضرورة أن نسمّح لهذه الصعوبات اختراق عقلنا الباطن والسيطرة عليه، فهناك عشرات الأفكار التي من الممكن استخدامها لطمس الصور الواقعيّة المُحبطة، ومن ثمّ إغراق العقل بما نريده من صور إيجابيّة من مصنع التخيل الذي نملكه، كما بإمكاننا إنتاج سيلٍ من صور تكتسيح العقل بملء الإرادة، مُتعمدّين ومؤمنين بقدرتنا على تحويل هذا العقل إلى فيلم يُعرض مراراً، ولمشاهد صنعناها بأنفسنا، وليس تلك التي أجبرتنا عليها الحياة.

وبعد معرفتي بشروط القروض التي لا تنطبقُ بديهاً على وضعي المادي وتحذير صديقاتي من المُستحيل والمُشكلات الصعبة التي لم أكن واثقة أن بوسعي حلّها.. ازداد تعرّضي لتكّ الضغوط، ممّا جعلني أعيدُ رحلة البحث من جديد عن منازل بديلة أقلّ قيمةً مُتنازلة فيها عن الكثير من المُواصفات، إنّما لم أستطع أن أتخلّى تماماً عن أحلامي وصوري الذهنيّة التي بنيتها لنفسي، ببساطة لم ألقها جانباً.. لكنني حملتها بين عينيّ في سفري وتنقلاتي وحتىّ في رحلة بحثي عن سكنٍ آخر للعيش.

كما أنّي انتبهتُ لشيء هام جداً وهو أن استعجال النتائج التي

لم تنضج بعد.. ستعمل بِشَكْلِ عكسي في فشل ما نرمي إليه من أهداف، وهذا يُشبه ذلك الطفل الذي اشترى له أبويه (قطعة) صغيرة، يعود إليها كل ساعة ليتفحص وزنها وشكلها، وليرى إن كانت قد ازدادت طولاً، أو كبرت!!، وهذا لا يعني أن يتركها للزمن فقط، وأن لا يتفحصها من أسبوع لآخر، إنما المقصود هو أن يُطعمها ويرعاها، ويبدو أن هذا ما حاولت أن أفعله، فالصورة الذهنية، أو تخيل المستقبل الذي نود أن نكونه.. يحتاج إلى تمرين وجهد لتغذيته وتربيته، تماماً كما نعمل على تغذية عضلة ما في أجسادنا، وهذا ما يمكن أيضاً أن نفعله مع (التخيل) وتنمية العضلة العقلية حتى لا تضمر.

أساليب النجاح التي ذكرها «كومباير» في كتابه تم شرحها بشكل تفصيلي، ودقيق، وتهدف لأن تكون كقناة اتصال مع القوة اللامتناهية في الكون، إنما اقتناؤنا لكتاب «هيا نساعدك» لا يعني بأننا نجحنا، لأن القراءة عن الوسائل المجربة للنجاح ليس بحد ذاتها كافية لجعلنا ناجحين، إن لم نطبق حقاً ما قرأناه، ونحوّله إلى فعل، فلن يتمكن أحد من مساعدتنا. وقد كانت فعلاً تُقلقني أفكار السلبية حول الفواتير والقروض والتي تتطابق مع حالتي الاجتماعية وخوفي من الانتقال إلى مدينة لأخرى، ولكنني تعلمت من خلال ما قرأته ألا أجعل تلك الأفكار تُسيطر على حياتي..

لم أكن أرغب في التفكير بالشيء الذي لا أملكه، ولكنني

رَكَزْتُ فعلاً على ما أريد امتلاكه. ولم يكن ممكناً لضغطِ المُجتمَع أن يَهْدأ حينها.. كان يثُور في وجهي كلَّ يوم، وأحياناً كلَّ ساعة، ليُدكِّرني بأنني وحيدة، وبأنني لا أملكُ المَبْلَغَ الكافي للاستقرار أو الاستقلال، وكنتُ أشعر بحرج شديد حين أضطر لقبُول الهدايا، ولا أَظُنُّني كنتُ أسير في الطَّرِيقِ الخاطيء، ولا أَظُنُّني أيضاً انْحَرَفْتُ بعيداً عن نيتي.

لستُ بحاجة إلى أن أقول بأنَّ بعض النَّاس الذين وُلدوا ليدمِّرونا هي فكرة قبيحة على هذا الكوكب، ولكن لنعلَم أن لولا وجودهم حَوْلنا لَمَّا عَرَفنا أضلاً بأنَّ للحياة قيمة أكبر ولَمَّا تمسَّكنا بحقِّنا فيها، ولَمَّا عَزَّزنا ثقتنا بذواتنا وعَرَفنا كيف تَكُونُ السَّعادة بعيداً عنهم، حتَّى وإن كانوا يُحيطون بنا من كل جانب، ويظَهرون كُلَّما التفتنا يميناً أو يساراً.

ومن المناسب ربَّما أن نُوضِّح بأنَّ الحديث الإيجابي والتفاؤل وحدهُ لن يغطِّي على الفشل المُؤلم مثلاً، أو يقضي على مَرَضٍ مستعصي، إنَّما الصُّورُ الذهنيَّة قد تُساعدنا في ذلك أكثر، هي فيتامينات متعدِّدة تُعطينا القوَّة والمناعة والنشاط. لكنَّها بكل تأكيد ليست سِحراً، أو طلسماً ولن تُحلَّ جميع المُشكلات في لحظةٍ واحدة. في الحقيقة هي أكثر من مجرد رسم صُورة مُضيئة فقط، بل هي تتعدَّى ذلك كلَّه نحو توجيه الاهتمام إلى السَّعادة والنَّعم التي نملكها والتي تحدُّث لنا يومياً دون أن نُسجِّلها، هي تبدو مثل تذكُّر الأوقات الطيِّبة.

من سوء الءظ أن مؤظم البئر لا يعرفون أهمة التطبيقات والالزام بها، ولا كيفة خلق صور ذهنية بإرادة واضحة، إنهم غير قادرين على اسئعاب أن عقولنا عبارة عن معالجة لمعلومات نسئقها من عالم مليء بالمئشرات، وعلينا فقط أن نءار الشئ الذي نؤليه اهتمامنا، قد نترقب ونعيد تذكُر الصور التي قد تكون مؤذية وندمج معها الأصوات والرؤاء، ولكن عندما تكون الأمور ملءة ومعلقة فإننا نميل إلى تركيز انبهاها عليها.

لهذا فإن الأشءا الذين يملئ عقلم الباطن بصور مؤمنة للمشكلاا والوقااع الصعبة، سيكون ما تم شرحه في هذا الكئاب ءءدياً كبيراً لهم. وبالتالي كان ءءدياً بالنسبة لي أيضاً، فبينما كنت أبعء لءل لأوضاعي التي تراكمت ودءلت إلى مرحلة عنق الزجاجة على ما يندؤ، ظهر في حياتي حينها رجل نبيل طالباً الاقئران بي، لقد كان صديقاً قديماً ومشركاً بين عدد من الأصدقاء وهو أساذي الذي كنت أابعه وأقرأ كئبه وأءفظ ءوجيهاهه في مجال الشعر والأءب والنقا كما أنه كان أرملاً آنءاكاً وانقل وءءه للسكن في بيء جديد بعء رحلة بعء طويلة قضاها هو أيضاً بين عءة مراحل انئقالية بين منازل مؤقءة.

الءهشة ليست لأنني لم أنءيل يوماً بأنني سأوافق على مباء الزواج مرة أخرى فهذه قضية جدء مختلفة، ولكن الءهشة كانت..

حين ذهبنا لأول مرّة لرؤية المَنزَل الذي سَنسُكُنُ فيه معاً.. وكَلَّمّا اقتربنا منه تفاجأتُ واندَهشتُ أكثرَ وحين وصلنا لمْ أَعُدْ قَادِرَةٌ على السَّيطرة على انفعالي ومشاعري وازتباكي كذلك، لأنَّ المنزلَ كانَ ضِمنَ سلسلة سَكْنِيَّة ومجمَع المَنازل الكبير الذي كان يتمُّ بناؤهم بالقربُ من المَنزلين اللّذين كانا جزءاً من أحلامي، كان في نفس الحيّ، وتمَّ بناءه بِنَفْسِ شركة المُقاوِلات والبنّاء التي قامت بإنشائهما.

نَعَمْ أعرف!! تظنُّون بأنِّي أبلُغُ ربّما، أو في أحسن الأحوال أهذي أو أتخيّل أو أضعُ بُهّارات كثيرة على ما أقول.. أليس كذلك؟، حتّى أنا نَفْسي لمْ أقدر على استيعاب كيف فجأةً انكسر عُقُ الرُّجاجة الذي كادَ أن يُطبق على دُنْيائي!! كيف رِبِحْتُ معركةً أخيراً بعد أن كُنْتُ قد اعتدتُ على الانسحاب بهدوءٍ من كلِّ المَعارك السَّابقة؟!، كيف حصلتُ على الدَّعم العاطفي والإنساني والأمان معاً؟!.. كيف تَلَقَّيتُ مُساعدةً مُضاعفةً غاية في العُمق والرقة والنقاء.. والإبهار!!؟.

عليّ أن أقول شيئاً هنا.. نَعَمْ لقد حَدثَ ذلكَ فعلاً، وهذا الحَدثُ بالذَّات هو ما جعلني أفكّر بكتابة هذا الكِتَاب، والذي أعرفُ مُسبقاً رَدّة الفِعل عليه ربّما، فليسَ من السَّهل أن تحكي امرأة ما جُزءاً من سيرتها الذَّاتيَّة بهذه البساطة في موطننا، مهَمّا كانَ هذا الجُزءُ صغيراً.. إلّا أنَّه سرعان ما يتضخَّمُ ويبدو كـ (تئين) كبير وبألْسِنَة لَهَبٍ تُصيبُ.. وأحياناً تحرقُ صاحبَها، ولكنني

أظنُّ.. وربّما تظنون أنتم أيضاً - بما أنكم وصلتم معي حتّى هذه الصفحة - بأنّ الأمنيات الشرعيّة لها من يرعاها يا الله، إنّها تجعلنا نخرج من كهف (ما ينبغي عمله) لنعيش حياتنا... نعم حياتنا نحن، تلك التي نستحقّها.

لقد آمنتُ إيماناً راسخاً بأحقّيتي في أن أساعد نفسي لأتمكّن من مُساعدة الآخرين، هذه ليست مجرد حكمة نسمعها ونشير عليها بالإيجاب، إنّها الأصل في مدّ يد المُساعدة والأصل في القُدرة على الاهتمام بالغير. كان الله معي في كلّ خطوة أخطوها، لقد اختبرني، امتحن قوّة صبري، وراقب محاولة عدم تقصيري تجاه الأطفال ولا الأمّهات اللاتي أعمل معهنّ، كان يراني أحاربُ لكي أبقى في خدمتهنّ وأن لا أنتقل لأيّ عمل آخر يوفّر لي سكناً أو راتباً أفضل ممّا أتقاضاه في جمعيّة خيريّة عملتُ بها لعشر سنوات دون أن أستطيع أن أدخر مالاً يلزمي في الأزمات، ودون أن أنتبه أن الأيام ستصفعني، وسترديني وحيدة بلا ماوى.

كانت الاختبارات صعبة وقاسية يا رب، وكِدْتُ في أيام كثيرة أن أستسلم وأنهار، ولكنك كنتَ كريماً ورحيماً، كنت الحنان المنان، كنتَ وما زلتَ يا مولاي وليّ نعمتي وصاحبِي في وحدتي، وعوّني في الكربة. لقد خلّقنا الله لنعيش حياة سعيدة مادّماً نبعث برسائل الحب والنوايا الطيبة نحو الآخرين، كل الآخرين حتّى أولئك الذين جرحونا، وتعَمَّدوا إيذاءنا، لا أزعم بأنني خالية من الأخطاء أو أنني ملاك منزّهة أو أنني الأم «تريزا» مثلاً، بل على العكس أحتاج كثيراً

لبناء وتقوية جانب التسامح والهدوء والتحكّم بالغضب والانسحاب والصراخ والهزيمة والأهم التحكّم بأعصابي التي تنهار وتنقلت بشكل مُستمر، إنّما كلُّ ما أجيده مثل كثيرٍ من البشر.. هو أنّي أتمنى الخير فقط للناس جميعاً.

كانت المَشاعر هي وسيلتي الوحيدة للتواصل مع ذاتي، فالأحاسيس التي تَنبع من تلامس أيدي من أحب، صوتُ الموسيقى، رائحة الأطفال، عناد الأولاد أدلَع البنّوات ملمس القِطَط، الغروب، التصوير الضوئي، السَّهر، الضَّحك، الصَّلَاة، الدُّعاء، الاستِخارة....أ وغيرها من أحاسيس أثرت في الجانب الشُّعوري واللاشعوري من ذاتي، وستؤثّر في ذواتكم أيضاً، لِهَذَا تدرَّبْتُ على أن أنتبه لكلماتي التي أوجَّهها إليّ، ودرَّبْتُ من حولي على أهميّة الكلمات لأنّها تنفِذُ إلى الأعماق مباشرة، وتحوّل إلى صُور ذهنيّة تؤكِّد على أهدافنا وتزيدها ثراءً.

الطاقة الحيويّة موجودة بداخلنا، لكنّها لا تَنبع ولا تخرجُ منّا عن طريق المصادفة، إنّها تنتظر دوماً طريقة ما لتخرج إلى النور، وهذه الطّريقة هي إيماننا بوجودها فينا، إدراكنا لها، وتأكيدنا على أنّنا نملكها، حتّى نتوحّد معها، ومع تركيز التّفكير والجهد المناسب على الشّيء أو الحال الذي نُريد أن نكوّنه، كلُّ هذا سيُحقِّق لنا الحال المطلوب الذي نحلُّم بأن نكوّن فيه ونتمنّاه، لِهَذَا ليس العيبُ أبداً في طاقات العقل الباطني الذي يستمدُّ قوّته من هذه القوانين الكونيّة والتي تجعل من طاقاته قوّة جَامحة وغير ملجومة، وأكبر

من أن يستوعبها الإنسان، «لكنَّ العيب قد يكمنُ في ضعف الصُّور الذهنيَّة التي نصدِّرها إلى هذا العقل، غموضها، بُرودتها، واختلاط أمرها، كما في فساد نوعها أيضاً».

لا تُوجد تعريفات دقيقة عن معنى (الصُّور الذهنيَّة) المُراد اختيارها، أو الخُطوات التي يجب إتباعها، إنَّما نتائج الدراسات العلميَّة تُقرُّر أنَّ الصُّور الإيجابيَّة عن الذات ومُستقبلها أمرٌ ممكن. إنَّما ليس كافياً أبداً أن نقوم بتخييل صُورة ذهنيَّة واحدة، باهتة، وسطحيَّة، فإذا كان الأمر بهذه السهولة لفعلنا كلنا ذلك، ولأصبحنا بسرعة أكثر سعادة بمجرد (التخيُّل)، إنَّما علينا التعمُّق وحفظ الصُّورة الحية التي من السهل استعادتها، ومن حين لآخر يجب كذلك أن نقوم بـ (الإعلان) عن هذه الصُّور، بمعنى قراءتها بصوتٍ مسموعٍ، بنفس طويل، بتهيئة، بضحكة، وبشكْلِ محسوس.

ببساطة.. صُورنا الذهنيَّة هي امتيازنا الخاص، من المُلهم أن ننتهزها في العزلة، وأن لا نفقدُها حتَّى مع الحُشود، هذه الصُّور شاهقة ولا نصعدُها عبثاً، فإنَّما أن نتحقَّق ونصل إليها، وإنَّما أننا بحاجة إلى تدريب عقولنا أكثر على الخيال.

وحتَّى نجعل العقل الباطن يصغي إلينا باحترام وانتيباه ويأخذ ما نأمره به على محمَل الجدِّ، فعلياً اقتحامه بخطى واثقة، وذلك عبر ما تُرسله إليه من صُور ذهنية، الواحدة تلو الأخرى، لأنَّ تكرار الرؤية للصُّورة تجعلها أكثر وضوحاً وإصراراً، وظهورها بشكْلِ يومي، هامس، مُتراكم، ومُتوالٍ يعمل على تحفيز العقل للتأهب

والاستجابة. وإذا لم نَقْم بِسِقايته بالماءِ النقي، فإنه بلا شك سيفتحُ إحساسه، ويُشبع ذاته من شتى المصادر الأخرى غير النقية التي تسقط عليه من كل اتجاه، وقد تكونُ تلك المصادر شراباً مسموماً، تافهاً مُثانماً، مُحَبَطاً، أو حتى.. مكانك سر.

وبما أننا لا نستطيع أن نلتقط صورة لمنظرٍ ما بالكاميرا دون أن نُعرضها للضوء، كذلك لا يُمكننا أن نلتقط أي صورة ذهنية دون أن نُعرض على شاشة العقل بِشكلٍ واضح. ومن المُهم أننا لا نقوم بتصوُّر صورة ذهنية واحدة فحسب، بل نتصوُّر شريطاً مُستمرّاً مُتصلاً من هذه الصور، «حتى أن الأمر ليُشبهُ شاشة سينما عملاقة يجري عليها عرض فيلم مُستمر، إنها سينما عقلية تتصبُّ شاشتها في صدر قاعة عقلنا الباطني». بينما نكونُ نحنُ ذلك الجمهور الشغوف بمتابعة وملاحقة اللقطات.

إنَّ تعريض كاميرا العقل لمئات اللقطات عن السعادة المُحتملة، سيغرق العقل الباطن بهذا الطوفان من الحيوية، بحيثُ تتأزشف الصور من خلال الماضي والحاضر معاً، وترتصُّ واحدة.. تلو الأخرى على شكل لبناتٍ صغيرة (Building blocks) يَرْتَفِع منها بُنيان الحياة. "كل لبنة بحسب حجمها وأهميتها. وهذا يتوقف على غزارة كل من هذه الصور الذهنية، ودرجة وضوحها وسطوعها، لحظة تسليطها على شاشة العقل الباطني". وكما أننا نحتاجُ للتكرار، نحتاجُ أيضاً لتلوين الصورة الذهنية وحقنها بالمنظر الخلاب وغير الباهت حتى نستطيع مُساعدة العقل الباطن للاستجابة بِشكلٍ أكبر،

فلا يُمكن لشخصٍ ما أن ينجحَ في تحريض وحث الآخرين على النَّجاح وهو في ذاتِ الوقت يتصرّف بشكل فاترٍ وهامد. أعشقُ بريق الأشخاص الذي تلمع في أعينهم صوراً للمكان والمكانة التي يحلمون بها، إنهم لا يتعبون من المعرفة والاستكشاف، لذلك هم يُضيئون الكثير من الأشياء التي من حولهم، ويُحاربون بضوئهم الأشخاص المُعتمين الذين لا يجدون ما يقولونه حين تسألهم إلى أين تودون الذهاب؟!، أو بماذا تحلمون، أو ما هي الصورة التي تودون أن تكونوا داخلها مُستمعين بأحسن حالاتكم، وبأحسن ما فيكم?!.

بالإمكان تنشيط الصُّور الذهنيَّة تحت إشراف طيّب أو أخصائي، وبالإمكان أيضاً استثارها ببعض الطُّرق الحديثة والتَّمرينات التي تُتَّجها بعض الكتب والمؤلَّفات أو بعض التَّسجيلات للتدريب عليها، وسوف تكون تلك الصُّور حينها من الأمور الطبيعيَّة والعادات اليوميَّة كأولئك الذين اعتادوا على (التأمُّل)، كما أن هناك وسائل عديدة للتواصل مع الذات كالكلمات والموسيقى والاسترخاء اليوجا والتأمُّل والتنويم المغناطيسي، نحنُ بحاجة فقط لأن نُخبر عقلنا الباطن ماذا نُريد بدقَّة كما يقول «جوزيف ميرفي»، وأن نُوجِّهه كي يُساعدنا على تحقيق أهدافنا، فحينما نعرفُ رغبتنا الحقيقيَّة سوف يدفعا عقلنا الباطن إليها مباشرة، ولكنَّه بحاجة إلى أن يتأكَّد من أننا نُريد هذا الهدف فعلاً بكلِّ جوارحنا، وأننا لن نتخلَّى عنه في مُقابل ما يعترضنا من ظُروف،

ومهمًا كانت العوائق أو التكلفة.

الطريقة الفعّالة في أن نُحسّن علاقتنا مع شريك حياتنا مثلاً هي أن نكتب السيناريو الذي نُريده لها، أن نبني حبكة روائية سعيدة وتفصيل حميمة وتدرجية وأن نتشبّث بها حتّى تتحوّل إلى واقع. وسواءً أكملنا الطريق مع هذا الشريك أم لا.. فإنّ طاقة الهدف الذي رسمناه والخطّة التي انبعثت من خلالها صوّرتنا الذهنيّة لن تذهب سدى. إنّها ستدور كامل الكون.. وستعودُ إلينا بذات الشكل الذي تصوّرناها أو حتّى بأشكالٍ أخرى، يكفي أن تأتي، وأن نعرف بأننا من طلبناها، وأننا استطعنا تحقيقها.

أمّا أنا.. فلم يمنحني الله منزلاً فقط، ولكن منحني رجلاً يحميني، يحتويني، ويملأ قلبي وأيامي وحاجتي للأنس والمودّة والرّحمة، وصحيح أنّي أسكنُ الآن معه في منزل يُشابه تماماً ذلك الذي كنتُ أحلمُ به، بل في نفس الشارع والتصميم والمجمّع السكني.. وصحيح أنّي أدينُ لشريكي بما أنا عليه الآن من وفرة وسعادة، لكن إن كانت هناك حقيقة يجبُ أن تُقال من كل تلك القصة.. فهي أن شيئاً واحداً فقط استطاع أن يجعلني في المكان الذي أتمناه، هذا الشيء هو أحلامي التي لم أتخلّ عنها.

البهلوان ..
ذلك الرفيق الفاتن

البهلوان..

ذللك الرّفيق القاتن

قبل الدخول في رهانات التعافي، كان عليها أن تتعرّف على نفسها أولاً، وعلى ما تُعانيه من داءٍ قاسٍ، هذا الاعتراف هو بمثابة نهضة أوليّة وهامّة للبدء بأولى الخطوات نحو الصّحة والسّعادة. الكِتابة والمهنة والكلمات قد تقربها من تلك الحياة التي كانت تتسرّب منها شيئاً فشيئاً، إنّما مشاعرها تجاه ما تشعر به من انهيار جعلها تؤمن بأنّ المرض الذي يُكبّل جسدها بقُيود الآلام والعَتمة.. لا يُمكن لشيء أن يُحرّره سوى الحُب.

وحيثما فكّرت الطّبيبة لأول مرّة بتأليف كتاب عن تلك المُعاناة، كانت تظنُّ بأنّ مضمونه سيكُون طيباً، علاجياً، تأهلياً عن طبيعة الأمزجة المُتقلّبة، وذلك بناءً على سيرة حياةٍ كانت أشبه ما تكون بمعطفٍ ثقيل، وأثقل بكثير ممّا يُطيقه جسدها الذي أضتته الكآبة والتعب.

إنّما حين بدأت بخطّ أوّل حروفها تحوّلت كلّ الأفكار الطّبية عن الكِتابة ليكُون تجربةً شخصيّةً حول دور الحُب، ورفقته، ومُؤازرته لها. نعم.. إنّهُ (الحُب) الذي جعل من مرضٍ ورنثهُ عن والدها أكثر احتمالاً، الحُب الذي يُشبه مظلةً تحت مطر غزير،

مصباحاً في عثمة، وقارب نَجاة من المَوْت، حيث حَمَلَ معاني
المسئولية والكدر والإرهاق إلى معانٍ أكثر مَرَحاً وبَهْجَةً وسَعادة.
إنَّه ذاتَه (الحُب) الذي يجعلنا نَتَصَرَّفُ كَمَا لو أَننا لا نرى.. أو
كَأَننا لا ندرى، كَمَا لو كُنَّا دوماً بانتظار أن يقودنا الحَبِيب، وَيَتَكَفَّلُ
بمُعافاتنا، أن يجمع طاقاتنا ويُحييها من جديد. إنَّه «الوسيلة لِحُبِّ
الإنسان ذاته تماماً» حسب «بول فاليري»، إنَّه جزءٌ من الكون، متَّحد
متجانس مُتَمَازِج معه، ولذلك هو الكونُ بذاته.

مُعقَدةٌ هي الحَيَاة إلى حدٍ بعيد، ومُتغيِّرة بِصُورَةٍ دائمة، ولا
يُمكن أن تُكون إلاً كذلك، تُشبه أُمُرِجتنا كثيراً، تَتَهَادى وتَتأرجح
بين الصُّعود والهُبوط، تماماً كَمَرَكِبٍ تَتقاذفه الأمواج. قد نُعاني
جميعاً من اضطرابات في المَزاج بين الحين والآخر، إنَّما يَعتمد
ذلك على مدى شِدَّة الأمر واضطرابه للدرجة التي يتحوَّل فيها إلى
مرضٍ ذِهاني مُفزع، أمَّا المُهم فهو كيف يُمكن لمرضٍ ما أن يَكُون
مُحَرِّضاً على الحَيَاة وسبباً في سعادتها، والأهم كيف يَكُون الحُب
طاقة للشفاء.

وهذا ما تحكيه وتقصُّه عَلينا الدكتورة «كاي ردفيلد جاميسون»
في كتابها «عقلٌ غيرٌ هادئ»، ترجمة «حمد العيسى»، حيث أصيبت
بـ «اضطراب المَزاج الثنائي القطب، Bipolar mood disorder» أو
ما كان يُعرف سابقاً بـ «ذهان الهوس الاكتيابي»، وهو مرضٌ نَفسي
يتميز بِتَنَاقُوب فترات من الكآبة الشديدة مع فتراتٍ أُخرى من الابتهاج
غير الطَّبِيعي قد تُؤدِّي بالشخص لقيامِ بأعمالٍ طائشة وغير مسؤولة

وخطيرة في بعض الأحيان.

هذا الكتاب الذي صُنّف واحداً من أفضل الكتب مبيعاً على قائمة صحيفة «نيويورك تايمز» تسبّب لي برودة فعلٍ مؤلمة فعلاً، وقد ظننتها في ذلك الوقت مُبالغاً فيها. فبمجرد أن وقَعْتُ عيناَي على عنوان الكتاب الفرعي «سيرة ذاتية عن الهوس والاكتئاب والجنون» لم أستطع استيعاب كيف يُمكن لأشخاص عايشتهم في حياتي وما زالوا يُعانون مرصاً كهذا أن يكونوا يوماً ما في خانة (الجنون) رُغم إبداعاتهم ونجاحاتهم وعبقريّتهم؟؟، انتابني القلق والخوف، بل الدُعر من مجرد التّفكير بتصنيفهم بقسوة حادة. لا أعتقد أنّ من الإنسانيّة تصنيف البشر إلى فئات بين مبدع، عادي، مُعاق، ومجنون.

مُصطلح كـ (الجنون) يُشير بذاته إلى حالة غياب للمنطق والقدرات العقلية غياباً كاملاً ونهائياً، لا يُطابق حقيقة بعض الأمراض النفسية الشديدة، كما أنّ الدكتور «أحمد عكاشة» يرى أنّ المُصطلح ليس له دلالة طيبة واضحة، ولا يُوجد أيّ مرضٍ في الطب النفسي والعقلي يسمى (جنون). إنّها كلمة عامة لا تعني سوى اضطراب في السلوك والتّفكير بعيداً عن المألوف وتقاليد المُجتمع. وهناك بالتأكيد وجعٌ ناتجٌ عن اختيار مثل هذه المُصطلحات، خاصةً إن كانت في سياقٍ ونبرة هازئة، تمتلئ سُخرية وتهكُّم، بالإضافة إلى أنّ الذاكرة الوجدانية تختزن كل المُفردات وتُسقطها

بالمعنى على الشخصية التي تُحارب ألا تكون (مَجْنُونَة) بالمعنى الوصفي للكلمة، أقصد.. بالمعنى المقيت واللاإنساني.

أعتقد أيضاً بأن من المُفترض أن تُصبح هذه الاضطرابات أكثر استيعاباً من النواحي الكيميائية والعلاجية، فهي لا تختلف كثيراً عن الأمراض الطيبة والمُزمنة الأخرى مثل أمراض الضَّغط، الغُدَد، السُّكري والرُّوماتيزم وغيره، ومن المُفترض كذلك أن تتكوّن لدينا نظرة مُتوازنة بعيدة عن وُضْمَة اللاعقل، ومن خلال ذلك فقط، يُمكن للمُجتمع تعديل الكثير من الأوهام المُرتبطة بالأمراض النفسية.

بينما تميل «د. جاميسون» كما بدت للمُترجم في مقدّمة الكتاب إلى الرأي الأول في تفضيل استخدام مُصطلح (جُنُون) كتعبير عن حالتها الذهانية السيئة أثناء اشتداد نوبات الهوس إلى مستويات اِحتياج عِنيفة، واشتداد نوبات الاكتئاب إلى حالات سوداوية كالحمة. ورُغم أنها فكّرت طويلاً وبجدية في اللُغة التي قد تستخدمها تعبيراً وبديلاً عن الجُنُون إلا أنها لم تجد له بديلاً، حتّى بعدما وصفتها إحدى القارئات بالفظاظة وعدم الإحساس. إلا أنّ المؤلّفة باعتبارها إنسانة وطبيبة ومريضة أيضاً فقد كانت تجد تعبير «ثنائي القطب» الذي يفضّله الأطبّاء العصريين مُزعجاً بطريقة غريبة ومؤثّرة، تماماً كما شعرتُ أنا بأن مفردة (الجُنُون) قاسية وواسعة ومهينة.

إنّ تسمية «ثنائي القطب» في رأيها يجعل المرَض مُبهماً ويقلّل

من شأنه بدلاً من وصفه بطريقة مثلى. بينما «ذهان الهوس الاكتيبي» من الناحية الأخرى محدّد ودقيق بالنسبة لها، ويُعبّر عن مرضها بجديّة دون محاولة للتواري والاختباء. وأظننا نتفق جميعنا على جزئية أنّ المَريض له كامل الحقّ في اختيار المُصطلح أو الوصف الذي يرتاح إليه، أو يجعله يشعر بأنّه مُنصفٌ وغير مذل.

ولهذا أحترمُ كامل حرّيتها كقارئة وقريبة من بعض هؤلاء المرّضى حين اختارت وارتاحت لاستخدام مفردة (الجُنون) لتعبّر عن كل لحظة عانت فيها من آثار هذا الداء الذي كاد تقريباً أن يقتلها مرّات عديدة، وهو بذاته الذي يقتل أيضاً عشرات الألوف من النَّاس كلّ عام، أكثرهم من الشَّباب المُبدعين والمَوْهوبين، فما بين 60 و80 في المئة من جميع المُراهقين والبالغين الذين يُقدّمون على الانتحار يُظهر تاريخهم المرّضي إصابتهم بالاضطراب الثنائي القطب أو الوحيد القطب. وقبل أن يُصبح عقار (الليثيوم) واسع الانتشار لأول مرّة في أواخر السبعينات، كان يُقدّم على الانتحار شخص واحد من كلّ خمسة مصابين بالاكْتِتاب الهوسي، وهو عددٌ كما ترون يُمكن أن نَصِفَه بأنّه مُخيفٌ حقاً.. ومُفزع.

لقد ولدت «د. جاميسون» وكبرت، أحبّت، تألّمت، انكسرت وانتصرت، وكان لها قصّة مُختلفة عن باقي القصص، لقد تحالفت في حياتها مع نقّيضين مُستقلّين (الابتهاج والاكْتِتاب)، إنهما يتوقّان للسيطرة عليها، يحترّفان في إدخالها نطاق السّواد، يتزأمان، يتوازيان، وأحياناً يتقاطعان ويختلطان في نوبة مُختلطة، ويُعقدان

اتفاقاً غير عادلٍ مع الأمزجة، لتقلّب وتقلّب ضدّها.

إنّ التعارضُ كلّهُ يكمنُ مع هذا المرّض، لكنّها حاولت بطريقة قداميّ الصينيّين أن تتّصرّ عليه، حيثُ آمنت مثلهم ”بأنّك وقبل أن تتّصر على الوحش، عليك أن تجعله جميلاً“. وعلى الرّغم من كون هذا الوحش قاتل.. إلّا أنّها أطلقت عليه (العدوّ.. والرّفيق الفاتن)، لقد وجدته مُغويّاً إلى درجة مرّكبة، لأنّه تكثيف لكلّ ما هو جميل في طبائعنا، ولكلّ ما هو خطير جداً في ذات الوقت. يبدو أنّه لو كانت هناك أيّ طريقة لإخبار الآخرين بأنّها مصابة بهذا الدُّهان لكانت وجدتها حتماً أثناء رحلتها الطويلة في تزويضه، أو منذ اكتشاف الإصابة به، إنّما الأمر الإيجابيّ في فعل الإخبار أو الاعتراف بالإصابة أنّ أكثر النّاس الذين أخبرتهم عن حقيقتها كانوا متفهمين، وبعضهم مُساندين وداعمين، وحتى وقت قريب.. كانت فكرة مناقشة مرّضها علنياً لا يُمكن تخيلها أو استيعابها.

وبالطبع كان أغلبُ هذا التردّد لأسباب مهنيّة، كالخوف من اكتشاف هيئة الرّخص الطّبيّة في أمريكا لمرّضها والتي ستطلب منها بكل تأكيد التخلّي عن التدريس والممارسة الطّبيّة، ولكن بعض أسباب التردّد الأخرى نتج عن القسوة، مقصّودة كانت أم لا، والتي عانتها بين وقتٍ وآخر من زملاءٍ أو أصدقاء اختارت البّوح لهم. حيثُ كانت دائماً ما تتذكّر بعض ردود الفعل الفظّة والمذلّة أحياناً.. والتي تفتقد كل مظاهر التفهم والتّعاطف، ممّا جعلها مُتشكّكة وبصوّرة أقرب إلى اليقين، بأنّ ”من لا يُعاني هذا

المَرَض.. لا يُمكنه أن يفهمه بِحقِّ!“.

لقد التحقتُ غَضَباً بمدرسة المَرَض، وتعلّمت مبادئها وأبجديّاتها وآلامها في صفوفِ الحَيَاة الصّارمة، ومع الوقت أَصْبَحْتُ أحدَ أعضائها المُتميّزين، طبيّية للمَرَض، ومريضة به أيضاً دون قصد ولا تخطيط. وقد بدأ هذا الاعتراف المتأخر وكأنّها تلتَمِسُ الغُفران على خَوْضِها تَجْرِبَةً شَخْصِيَّةً كهذه أماناً، فطبيعة هذه التّجارب تُدور إلى حدٍ كبير حول الأَسْر والعائِلات.

لا نُنسى أنّنا أمام مَرَضٍ وراثي، بالإضافة إلى الاعتقاد العام بأنّ الأمور الشّخصية يجب أن تبقى دائماً طَيِّ السَّرِيَّة والكِتْمَان. إنّها على المُستوى الفردي مُغامرة، أمّا على المُستوى الاجتِماعي فمَخاطِرُها تُصَبِّحُ مُشكلة يَسعى صاحب الدّاء إلى التخلُّص منها عبر الوقت.

أظنّها ما تزال تُعاني قلقاً بخصوص قرارها هذا، إنّما القضيّة الأكثر إنسانيّة في هذا الكِتَاب بعد الألم والمُعاناة والصّرخة غير المسمُوعة هو عدم القُدرة على ادّعاء المِثاليّة، وعدم تبرير توبّات المَرَض المُتأرجحة بغير مُبرّراتها. إنّها الحقيقة عاريّة وفجّة، لا ترتدي ثياباً تُناسِبُ شكلها، ولا مَقاسها، إنّها تأتي هكذا لكي تصدُمنا في أقرب الأشخاص منّا تارّة، أو في فنّانٍ أو كاتب، أو مبدعٍ أو سياسي عانى طويلاً من حالةٍ مُمتدّة لا يُمكن أن نصفها إلا بالقياسية والمؤلّمة وغير المفهُومة.

لكن يبدو أن الأمر في نهاية المطاف أفضل من الاستمرار في الصمت. ويبدو أيضاً أنها تعبت من الاختباء، التوارى، والتمثيل، وكما لو أن لديها شيئاً يجب أن تخفيه. قصتها قد تبدو لي أو لأي قارئ آخر.. علامة على الجرأة، والقوة، وشجاعة، بينما كانت بالنسبة لها لحظة مُصالحة مع المرَض ومحاولة لإنشاء صداقة معه. كانت في الصف الثالث الثانوي عندما أصيبت المؤلفة بـ (النوبة) الأولى، كان كل شيء بدأ يعدو في داخلها وحولها وخارجها بسرعة نحو الأشياء، موسيقى تصدح في كل وقت، ألوان، ملابس مبهرجة ومتمادية، صرخات إعجاب، ضحكات من القلب، صخب، دهشة، وانطلاق، كانت تجري بسرعة، تتحدث بسرعة، تنطلق بسرعة، تعلق بسرعة، تقرأ كل ما يقع تحت يديها، تُثرثر، تُنهِك من حولها بالزوبعات، تمسك بتلابيب أصدقائها حتى يستمعوا إليها عنوة، كانت متقدة وحماسية لدرجة أن لا أحد كان قادراً على مجاراة ولو جزء بسيط من نشاطها، وربما الآن فقط باستطاعتها أن تتذكر في أعينهم هذه الجملة بالضبط: "كاااي، من أجل الله، اهدئي!".

وأخيراً.. هدأت «كاي»، بل توقفت لدرجة السكون، هذا العقل المتقد عاد ليشيخ بذات السرعة، كشخص يفقد ذاته ويكون هكذا قريباً من الموت ومن الحفرة الأخيرة. وهذا ما يفعله مرض كهذا، يرفعك في فترة ما لأعلى قمة من سفح النشاط والحيوية واللامبالاة بالمخاطر، ثم في فترة أخرى يهوي بك في قاع بئر من الكآبة

والسَّواد والاضمحلال، لتبدأ مرحلة السُّقوط إلى الأسفل، الطَّاقة تتدهور، التَّفكير يُصبح ضبابياً، مُوحشاً، غامضاً، غامقاً، ومُخيفاً، لا شيء يعلّق في الذاكرة من أيِّ صَفحة تُقرؤها، من أيِّ كتاب، أو قصيدة، المصيرُ يَغدو مُبهماً ولا منطقي، والرَّغبة في المَوْت قويّة وحادة.

كُلّ الأشياء، الأشخاص، المواد، الطَّعام، الطَّموح، الغد، الأمس يَكُون بِلَا معنى، بلّ ذا معنى واحدٍ فقط.. وهو أن هذه الحياة لا تستحقُّ العناء، ولا يُمكن أن تُعاش. كم هو مرعبٌ أن نظنُّ بأننا نعتمد على عقلنا كأحسن صديق.. فيخذلنا!، مُرعبٌ هذا العقل حين يَضحك أو يَسخر منّا، يَرْمُقنا بنظرة تافهة، يعمل ضدَّ إرادتنا، حُبنا، طموحنا، إخلاصنا، عَمَلنا.. ومُرعبٌ أن يُصبح فجأة عدوَّنا. لا أحد بِشِكل عام يعرف الحياة كزاوية مُستقيمة.. ولا خطأ عمودياً، الحياة دائماً هكذا بين مدِّ وجَزْر، إنَّها الكُرّة الأرضيّة تلك الأشبه بـ (السِّيرك، circus) الدَّائري الذي يَخترقه خطُّ الاستواء، عمود وأوتاد تُقام عليها الخيمة الملونة، مكانٌ مليءٌ بِالخَطَر، الضَّجيج، الباعة المُتجولون، المُهرَّجون، الحيوانات المُدرَّبة، الموسيقيُّون، الحركة السَّريعة، المُغامرة، والمُجازفة من أجل لُقمة العيش والخُبز اليوميُّ والكفَّاف.

بينما وحده المُصابُّ بهذا الاضطراب يُحاول ترويض النُّمور، الأسود، الفيلة، الوُحوش، يتأزَّج كبهلوانٍ على حبلٍ مَشْدودٍ بين المَرِحِ الشَّديد جداً والكآبة الشَّديدة جداً، حتَّى الضَّوء يَنحسرُ فجأة

عن المَكانِ إلاَّ عن تلك البُقعةِ الوحيدةِ والمُسلطةِ على بهلوانِ ذا
 ابتِسامَةِ عريضةٍ ودمعتينِ جافَتينِ. حيثُ لا يَبقى في نهايةِ الأمرِ سوى
 ذكرياتِ الجُمهورِ حولِ أدائِهِ، أنفِعالِته، تصرفاتِهِ، سُلوكِهِ، حركاتِهِ
 الخَطيرةِ، الغريبةِ، المَسعورةِ والهائِمةِ.

إلى أن يَمضي ذلك البهلوانِ والسؤال لا يُفارقهُ عن زمنِ
 العَرضِ القَادمِ، والمُدَّةِ التي يستغرقها الوُصولُ إلى الفقرةِ، المَشهدِ،
 الوَصلةِ، والجولةِ الأخيرةِ، ليعودَ شخصاً عادياً، يَمسحُ عن وجهِهِ
 الألوانَ، يخلعُ مَلابِسَهُ المُرَقعةِ، ويعودُ جزءاً مناً.. يجلسُ بجانبنا
 نحنُ الجُمهورِ الذي من المُفترضِ أن نَكُونُ أكثرَ عقلاً واتزاناً منه.
 «أبي أعطاني، عن طريقِ الطبعِ، حصاناً غيرَ مروّضِ، هائجاً،
 شريراً ومن المُستحيلِ التَّعاملُ معه. لقد كان حصاناً بدونَ اسمِ،
 وحصاناً بدونَ تجربةِ البتَّةِ، أمّي علّمتني أن أروّضهُ! أعطتني
 الانضباطَ والحُبَ لأسيطرَ عليه، وعلّمتني أن أفضلَ طريقةَ لكي
 تَسوسَ حصاناً هي أن تجعَلهُ يواجهَ الشمسَ». هذا ما كتبته المؤلِّفةُ
 في إحدى صفحاتِ الكِتَابِ، وهذا الحصانُ الهائجُ.. عليه أن يُواجهَ
 الحقيقةَ ويعترفُ بها.

مُعظمُ الأطباءِ النفسيينِ يشيرونَ إلى أن النّاجينَ من مُحاولاتِ
 الانتِحارِ غالباً ما يُغيِّرونَ وجهاتِ نظرهم، ويعترفونَ بعدمِ صلاحيةِ
 دوافِعهم كسببٍ جعلهم يَنهونَ حياتهم بأيديهم، لذلك فهُمُ يَعُودُونَ
 إلى الحياةِ أكثرَ حُباً وتمسكاً ورغبةً في العيشِ، إلاَّ أولئك الذين
 يُعانونَ من اضطرابِ «الهوسِ الاكتيابي»، فدائماً ما يُصرونَ في كُلِّ

نُوبَةٌ تَجْرُهُمْ إِلَى الْأَسْفَلِ لِإِنِّهَاءِ مُعَانَاتِهِمْ بِالْمَوْتِ.

وَمِنْ أَضْعَبِ التَّعْبِيرَاتِ فِي هَذَا الشَّأْنِ مَا قَالَتْهُ «د. جَامِيسُون» فِي طَيَّاتِ كِتَابِهَا: «إِذَا قَتَلْتَ نَفْسَكَ، فَإِنَّكَ تَسْتَحِقُّ اعْتِبَارَ مَا قُتِمَتْ بِهِ انْتِحَاراً (نَاجِحاً) إِنَّ هَذَا النَّوعَ مِنَ النَّجَاحِ يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ أَنْ يَعِيشَ بِدُونِهِ بِكُلِّ تَأْكِيدٍ! هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُخْفِقُونَ فِي قَتْلِ أَنْفُسِهِمْ لِيَسُوا فَقَطُّ ضُعْفَاءَ وَلَكِنْ غَيْرُ أَكْفَاءٍ.. غَيْرُ قَادِرِينَ حَتَّى عَلَى إِتْمَامِ عَمَلِيَّةِ قَتْلِ أَنْفُسِهِمْ بِطَرِيقَةٍ جَيِّدَةٍ».

لَقَدْ عَلَّمَتَهَا تَرْبِيَّتُهَا أَنْ تَحْتَفِظَ بِمَشَاكِلِهَا لِنَفْسِهَا، وَالْجُهْدَ الَّذِي بَذَلْتَهُ لِإِخْفَاءِ مَا تَمَرُّ بِهِ مِنْ سُكُونٍ وَإِنْحِسَارٍ كَانَ جَهْداً هَائِلاً وَقَاسِيَاً، أَمَّا الْحِيلَةُ الَّتِي ابْتَكَرْتَهَا وَلَمْ تَجْعَلْ أَحَدًا يُبْلِغُكَ بِمَرَضِهَا خَاصَّةً فِي بَدَايَتِهِ فَقَدْ كَانَتْ مَزِيجاً مِنْ (الْخَمْرِ مَعَ عَصِيرِ الْبُرْتَقَالِ) الَّذِي تَتَجَرَّعُهُ قَبْلَ الذَّهَابِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ. وَقَدْ كَانَتْ حِيلَةً قَوِيَّةً صَمَّمَتَهَا بِدِهَاءٍ لِمُسَاعَدَتِهَا عَلَى تَقْدِيمِ صُورَةٍ مُتَوَازِنَةٍ إِلَى حِدِّ مَا عَنِ شَخْصِيَّتِهَا وَلَوْ لِفَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ.

وَرُغْمَ ذَلِكَ لَمْ تَشْفَعْ لَهَا هَذِهِ الْحِيلَةُ فِي سَجَلِ دَرَجَاتِهَا الَّذِي كَانَ مُشَوَّهاً بِمَوَادِّ أَخْفَقَتْ فِيهَا، وَأُخْرَى لَمْ تَسْتَطِعْ إِنْجَازَهَا، إِنَّمَا الَّذِي كَانَ يَجْعَلُهَا نِهَايَةَ الْعَامِ تَنْتَقِلُ لِسَنَةِ دَرَاْسِيَّةٍ جَدِيدَةٍ هُوَ أَبْحَاثُهَا الْعِلْمِيَّةُ الَّتِي تَرْفَعُ مِنْ مُسْتَوَى دَرَجَاتِهَا الضَّعِيفَةِ فِي الْاِخْتِيَارَاتِ.

وَلَيْسَتْ وَحْدَهَا مُشْكَلَةُ الدَّرَاسَةِ مَا كَانَتْ تُعَانِيهِ بِسَبَبِ هَذَا الْمَرَضِ الْعَنِيدِ، بَلْ عَدَمُ وَجُودِ سَقْفٍ لِمَصْرُوفَاتِهَا الْبَازِيخَةِ وَاللَّامْعَقُولَةِ.. كَانَتْ هِيَ أَيْضاً أَحَدَ الْكَوَارِثِ الْآخَرَى، ابْتِدَاءً مِنْ

شرا ئها لحصانٍ لا تحتاجه ولا تمتطيه، ونهاية بمُرا كمتها لأكوام
من تذاكر المَسْرَحِ واسطِوانات الموسيقى والسيمفونيات، حيثُ
أنَّ نُسخة واحدة من كلِّ شيء لم تُكُنْ كافية ولا مُمكنة لها أبداً.
فغالباً ما يجدُ أصدقاؤها في شقَّتْها عشرات النُّسخ والإصدارات
المتشابهة. «اثنى عشر صندوق إسعاف ضدَّ لدغ الأفعى، أحجاراً
كريمة، أثاثاً فخماً وغير ضروري، ثلاث ساعات فخمة إحداها
رولكس، وفساتين غير لائقة تماماً شبيهةً بملابس الحُوريات». وما
لا يعرفه الإنسان العادي أنَّ نوبة الشراء هذه تعتبر جزءاً من نوبة
المرح والنشوة المُفرطة والنشاط، والتي تنتهي غالباً حين تُنطلقُ نوبة
الاكتئاب، وبعد وصول الكثير من إشعارات تحطِّي الرصيد البنكي
بلونها الوردِي المميّز، والمُرعب.

نعم!!، إنَّها الأمزجة المُتكررة والحادة، والتي جعلتها تدفع
ضرائب أكاديمية ضخمة في سنوات دراستها، إنَّه الكفاح المُرهِق
الذي يتناوب لأسابيع، وأحياناً لأشهرٍ من العمل الشاق والمرح
والعاطفة المُتقددة والحماس الشديد الذي يُرافقه نوعٌ خاصٌ من
الألم، الوحدة، والرُّعب.

فحين يكون المصابُ متشياً يكونُ الوضع مُذهلاً، الأفكار
والمشاعر تأتي مُسرعةً، والقُدرة على الإبداع مذهلة، وأسر قلوب
الآخرين يُصبح أمراً لا مفرَّ منه، لا يُمكنه أن يقلق حينها بخصوص
المال لأنَّه سيأتي من مكانٍ ما، ولهذا تُعدُّ بطاقات الائتمان بالنسبة
للمصابين بالمَرَضِ كارثة، والشيكات الشخصية أسوأ، لأنَّ الانهماك

في فَوْزَةٍ سِرَاءٍ مُفْرَطَةٍ يُعْتَبَرُ جِزَاءً كِلَاسِيكِيًّا مِنْ نَوْبَةِ الْهَوَسِ
وَالْإِنْتِشَاءِ!

فلا شيء يُمكن أن يُعاند الْبَهْلَوَانَ الذي يقفز على الحبل
بِنَجَاحٍ وَخَفَّةٍ، كل شيء يتحرَّك معه بسرعة، الكلمات، الغناء، السَّهْرُ،
الرقص، العِلاقات، الإغْوَاء، الضَّحْك، الثياب المُثيرة بشكل لافت
للنظر، الماكياج الأكثر من المُعتاد، الألوان، وحتَّى النوم.. لا يُمكن
أن يُجبر هذا الْبَهْلَوَانَ على إغْمَاضِ عَيْنِيهِ، لذلك فَإِنَّهُ يظلُّ سهراناً
لأيام، ومُحلقاً لساعات وكأنَّه لا يخشى السُّقُوط.

لكن في لحظةٍ ما.. وفي مكانٍ ما، تتغيَّر كل هذه البهجة..
ليجدَ الْبَهْلَوَانَ نفسه مُعلقاً في الهواء بين السَّمَاء والأرض، مُشوشاً،
غاضباً، خائفاً، مُنفِعلاً، مُرتبكاً، لتبدأ مرحلة الاكْتِتاب بالتَّسَلُّل داخل
الجسد، وتُصبح الدِّيُون والفَوَاتير سبباً مُمتازاً ليُكون أكثر اكتئاباً!؟،
تتطَّير في الرَّأس الكلمات والجُمَل وتتَشَطَّى أولاً إلى عباراتٍ
غير مفهومة.. ثمَّ إلى مجرَّد كلمات، وأخيراً إلى حُرُوف فقط، ثمَّ
الصَّمْت، وكل ما كان يتحقَّق للْبَهْلَوَانَ من تصفيقٍ وتَهليلٍ ومَرَحٍ
على حسبِ هَوَاهِ وَنَجَاحِهِ يتحوَّل الآن ضده، ويُسجِنه داخل ذاته،
يحفِر فيه بئراً يزدادُ عمقاً، ويتركُ وراءه عقلاً يائساً، وجسداً عاجزاً،
ورُوحاً مُحطَّمة.

وعلى الرُّغم من كل هذه الإشارات المُفزعَة إلاَّ أن «د.
جاميسون» ظَلَّت تعتقِدُ لمدَّة عَشْر سنوات أن بإمكانها السَّيطرة
على هذا التَّقَلُّب الحادِّ في المزاج، وحتَّى في حَالَات الطَّوَارِئِ

القُصوى ظلَّ هذا الاعتقاد قوياً، إنّما الاعتقاد الأقوى هو رفضها لأيّ علاج مهمّما كانت تُعرَف بِحُكم خبِرتِها الطّبية والبحثّية والأكاديميّة بأنّ (الليثيوم) هو الطّريقة الوحيدة للعلاج والنّجاة. وهكذا يتذكّرُها الآخرون فتاةً شاردة، صاخبة، مُتهوّرة، فوضويّة، وبعد أيامٍ فقط تتغيّر تماماً لتعود مُنعزلة كئيبة، يائسة، وانتحاريّة.

لم يُكن كافياً إدمانُ الاستحمام بالماء السّاخن، ولا الرّكض على امتداد الشّاطئ لساعاتٍ، ولا الذّهاب والمجّيءُ داخل الغُرفة طوال اللّيل، ولا النّشيجُ خارج العيادة النفسيّة قبل أن تتمكّن من دُخولها، لم يكن لأيّ شيء من هذه الطّرق التقليديّة قادرٌ على تخفيفِ الاهتياج والغضب والقلق الذي كانت تُشعرُ به، كل هذه الأمور تُعدُّ تغافلاً وخِداعاً وإنكاراً لسببِ الأزمة الحقيقيّة. وإن تمّ في يومٍ إرضاخها للعلاج وشعرتُ بعدها بتحصّن في حالتها من جرّاء انتظامها على الدّواء.. فسُرعان ما داهمتها من جديد الرّغبة في التوقّف عنه، وذلك لأنّها في كلّ مرّة تظنُّ بأنّها قادرةٌ على المُواجهة والقتال بالعزيمة والإضرار والاعتماد على النفس بدلاً من (الليثيوم). ولكن ما أعرّفه جيداً عن المرّضى.. أنّ هذه النّوبات حين تهدأ فغالباً ما يُخالجُ صاحبها أملٌ بأنّه قد سُفيَ تماماً، وليت ما يظنونّه يكونُ صحيحاً، إنّ هذه الظّنون تظلُّ مجردُ آمالٍ وأحلام تُنقش على الرّمال.. وسرعان ما تمحوها رياحُ النّوبات وأمواج الأمزجة.

إنّها الأمزجة العنيفة والمُفزعة، إنّهُ البهلوان الذي لا يكفُّ عن الحركّة والدوران إلاّ ليبدأ مرّةً أخرى، وحتى وإن اختفت النّوبات

وحدها دونَ علاجٍ ولفترةٍ طويلة، فإنها لا تفعل ذلك إلا لشيء واحد فقط.. هو الهدوء ما قبل العاصفة أو فن الاستراحة لتستعيد عزمها، لتشدُّ قواها، لتُهَيِّئَ نفسها لهجمةٍ أكثرَ شراسةً، أقوى بهجة ثم أكثر تدميراً، ويكون لزاماً في النهاية العودة إلى الـ (ليثيوم).

الليثيوم.. هو الدواء الذي يجب تناوله ليمَّ استعادة الذاكرة شيئاً فشيئاً، والتي غالباً ما يستعيدها مع التوازن ولكن بعد أن تتبخَّر الصداقات، وينهار الزواج، وتنتهي معاملات البنوك والديون الفواتير المتراكمة، وإنذارات التقصير في العمل، ليعود السؤال الدائم في الظهور: متى ستكون المرة القادمة؟!، متى سيعود الكازنفال المكهرب للعقل؟! متى سيضعد البهلوان على الحبل ويصبح مُعلقاً بين السماء والأرض؟!.

وعلى الرغم من آفات الليثيوم وآثاره الجانبية المقيتة إلا أن المؤلفَة وجدت نفسها مُعتمدة عليه، محتملة الغثيان والتقيؤ الشديدين مراتٍ عديدةً في الشهر. وعادةً لا يكون النوم على أرضٍ دورة المياه كافياً لتهدئة جسدٍ يعاني ارتجافاً، واضطراباً في المشي، اضطداماً بالجذران، وكلاماً مُتداخلاً غير واضح. أيضاً زيارات عديدةً للطوارئ والمستشفيات، حُقناً عبر الأوردة، وحرَجاً شديداً لدرجة الخزي كون ما تُعانيه من أعراض يشبه تعاطي مُخدَّرات، أو حُبوب هلوسة، أو الكثير من الشراب المُسكر.

لا بدَّ أن نتخيَّل عمق التمزُّق الذي يحدثُ لكيانها وجسدها الأصلي حين يستوعبُ ما يحدثُ له بعد كلِّ هجمةٍ، وكيف يُمكن

لملّمة الأشلاءِ النفسية المتأثرة لطبيية نفسية ماهرة، تتواجد في قسم الطوارئ في حالة تسمم وهذيان نفسي، وكيف يُمكن لهذا الكيان أن يُعيد بناء ذاته من جديد قبل إغارة النوبة القادمة. أو كيف يُمكنه أن يجد نفسه التي سقطت في حُجرة مظلمة قبل إشعال الضوء!. وإن وجدها هل سيتعرّف عليها؟!، هل سيجدُ شكلاً غريباً، بشعاً، مُفاجئاً.. لم يكن مُستعداً لرؤيته؟!.

قد تكون «د. جاميسون» نسيبت مع الأيام ردّات فعل الآخرين وعدم تفهمهم أحياناً، إلا أنّها لم تنسَ حتّى الآن قسوة الطيب الذي طلب منها بجلافةٍ فائضة (عدم الإنجاب) أبداً، وكأنّ نضلاً حاداً أصاب قلبها مباشرة، وما زالت حتّى الآن تتنّ من حدّته، لا شيء في هذه الدنيا كما تذكّر جعلها تشعرُ بالمرارة والندم إلا كونها لم تُرزق بأطفالٍ يملئون المنزل كما كانت تُخطّط وتتمنى.

وبالطبع ليس كلُّ الأطباء النفسيين قساة وعمليون لهذا الحدّ، فها هي تصفُ علاقتها بطبيبها الخاص، وكأنّه الصديق الأكثر قرباً ومهارة «لقد أبقاني على قيد الحياة أكثر من ألف مرّة، شاهدني في حالات الجنون، واليأس، وعلاقات حبٍ ناجحةٍ وفاشلةٍ، وانتصارات وخيبات، وتحسّن ثمّ عودة للمرض، ومُحاولة انتحار شبه مُميتة، ووفاة رجلٍ أحبّته كثيراً، ومُتّع، وصراعات مهنية، لقد كان صابراً، بالإضافة إلى كونه عطوفاً جداً».

وفي موقعٍ آخر تقول: «أتذكّر جلوسي في مكتبه أكثر من مئة مرّة خلال هذه الشهور المقيتة وفي كل مرّة أفكر: ما الذي

يُمكنه قوله لِيَجْعَلَنِي أَشْعُرُ بِتَحَسُّنٍ أَوْ يُبْقِنِي عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ؟!..
 هذا هو الشَّيْءُ المُضْحِكُ.. لقد كَانَتِ الأَشْيَاءُ الغَيْبِيَّةُ، والمُتَفَانِلَةُ
 بِيَأْسٍ، والمُتَوَاضِعَةُ الَّتِي - لم يَقُلْهَا - هِيَ الَّتِي جَعَلْتَنِي أَبْقَى عَلَى
 قَيْدِ الْحَيَاةِ».

لكن يا تَرَى هل حقاً عَلَيْنَا أَنْ لَا نُخَاطِرَ بِالجِنَاتِ الِوَرَائِيَّةِ
 لِمَرَضِ «الهُوسِ الاكْتَابِي» حِينَ يُفَكِّرُ أَحَدُهُم بِالِإِنْجَابِ؟!، هل
 سَيَكُونُ العَالَمُ جَمِيعاً إِذَا مَا تَجَانَسَ وَأَصْبَحَ عَاقِلاً وَمُتَوَازِناً وَتَافِهاً؟،
 هل إِجْهَاضُ الأَجْنَةِ الَّتِي تَحْمَلُ هَذِهِ الجِنَاتِ حَلّاً رَحِيماً.. أم لَا
 إِنْسَانِيّاً؟؟ هل سُنْغِي كُلَّ المُبْدَعِينَ، والمُكْتَشِفِينَ، والأَطْبَاءَ الَّذِينَ
 أَصِيبُوا بِهَذَا المَرَضِ وَعَانُوا مِنْهُ رُغْمَ أَنَّهُمْ أَنْتَجَوْا لَنَا بِحِوْثاً، فُنُوناً،
 مُوسِيقِي، وَاخْتِرَاعَاتٍ!!، فِي الحَقِيقَةِ لم يَجِبِ الكِتَابُ عَنِ هَذِهِ
 التَّسْأُولَاتِ إِنَّمَا تَرَكَهَا مَفْتُوحَةً لَنَا كَقَرَّاءٍ، بَعْدَ أَنْ أَرَانَا الوَجْهَةَ الأُخْرَى
 مِنَ المَرَضِ بِقُطْبِيهِ الحَادِثِينَ.. الهُوسِ والاكْتَابِ.

صَحِيحٌ أَنَّ «ذَهَانَ الهُوسِ الاكْتَابِي» مَرَضٌ يَسْلُبُ الحَيَاةَ، إِلاَّ
 أَنَّهُ يَهْبُهَا فِي ذَاتِ الوَقْتِ، أَوْ هَذَا مَا تَعَلَّمْتَهُ «د. جَامِيسُون» خِلَالَ
 رِحْلَتِهَا: «كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يُسْفِيَ العَقْلَ بِأَعْجُوبَةٍ بِوِاسِطَةِ نَضْفِ فُرْصَةٍ،
 وَكَيْفَ أَنَّ الصَّبْرَ وَالنُّبْلَ يُمَكِّنُهُمَا أَنْ يُعِيدَا تَرْكِيبَ قِطْعِ رُوحٍ مُبْعَثَةٍ
 بِصُورَةٍ رَهِيْبَةٍ. مَا فَرَّقَهُ الأَلْمُ إِرباً إِرباً، يُمَكِّنُ لِمَلَّاحٍ خَيْرٍ، وَطَيِّبٍ
 نَفْسِي مِنَ الطَّرَازِ الأَوَّلِ، وَرَجُلٍ حُبِّ وَحَنَانٍ، أَنْ يُعِيدَ تَرْكِيبَهُ كَمَا
 كَانَ فِي الأَصْلِ تَقْرِيْباً».

لقد تَمَكَّنْتُ بِالحُبِّ وَالحِمَايَةِ مِنْ وَجُودِ فُرْصَةٍ آمِنَةٍ لِتَقْلِيلِ جُرْعَةٍ

(الليثيوم) التي كانت تتناولها وتُسبب لها كل التأثيرات الجانبيّة. وقد منحها ذلك إحساساً حيويّاً، مُوازناً، وثابتاً كالذي يتمتّع به بقيّة النّاس. إنّها مدينة على ما يبدو ولو جزئياً لمرّضها، إنّما ربّما علينا أن نستنتج بأنّ صاحب الفضل ليس هو الدّاء في حقيقته ولا بعينه، إنّما النّشاط والحيوية المُنتجة للإبداع خلال نوبات النّشوة، هذا هو فعلاً الاتّجاه الإيجابيّ لهذا المرّض، والذي ركّزت عليه واستغلّته لتُساعد ذاتها وتُساعد مرّضاها وقراؤها، إنّ وعيها بِحدودها النفسيّة، هو علامةُ فارقةٌ في تاريخ إبداعيّها وتميّزها، الأمر الذي أشعرها بأنّها ما زالت وسط هذا الكون، تتمتع بدفته الداخليّ الحميم، إنّّه يعيد إليها سعادتها، يخميها من التشتت، والعزلة والغيب.

الجَمال عند أفلاطون يتحقّق بالحبّ، كما ذكر «د. بركات مراد»، لأنّه آمن بوجود نوعين من (الهوس أو الجنون)، هوسٌ يؤدّي إلى اضطراب يُحطّم ذات الإنسان، وهوسٌ يفتح ملكاته، وهو ما يُسميه الهوس الإلهي، أو الشرارة التي تُفجّر الطّاقات الإبداعية في النفس الإنسانيّة. لهذا أظنّ أن لولا عناية الحُب والليثيوم لكانت «د. جاميسون» بلا شكٍ ميّنة، سَجينة، أو مجنونة.

إنّ هذه الأمزجة المُتقلّبة بين صعودٍ وهبوطٍ حادٍ، والتي تأتي وتُغادر، هذه النّعمة وهذا الشّر، أصبحت جزءاً من حياتها ولا أظنّ أيضاً أنّها قد تتخيّل العيش دونها. وبالرّغم من أنّها وحتى لحظة تأليف هذا الكتاب لا تزال تُعاني انبثاقات نوبات هوسٍ صيفية، إلّا أنّها أصبحت تخلو ليس فقط من أغلب الرّعب المُصاحب لها،

ولكن أيضاً من أغلب النشوات الجميلة.

لا أصدق أنني ما زلتُ احتفلُ بهذا الكتاب وإن كانَ على طريقي الخاصّة بين الدُموعِ والبَهجة والإعجاب والكثير من الشّاي الأخضر، في كلِّ مرّة أعود فيها لقراءته أشعرُ وكأنّني أستمتع وأنالِمُ وأتعلّم بكلِّ ما جاء فيه من مشاعر للمرّة الأولى، ربّما لأنّني أتذكّر كيف يُمكن للحياة أن تكون مُتناقضةً لهذا الحدِّ، وباعتقادي أنّ المُعاناة التي يعيشها هؤلاء المرّضى وخاصةً الذين عاشتُ بعضاً من مُعاناتهم وكنْتُ قريبة منهم في فتراتٍ كثيرة.. تكمنُ في تأرُجِحِ تصوّراتهم لأدوارهم وأمزجتهم في الحياة، تماماً كما يشعرُ المرّاهق حين يتنقّل من دور الطفولة والشّباب، إنّه مرادفٌ منطقيٌّ للضّياح وعدم الوعي بالحدود الكائنة بين ذاتهم وبين العالم من حولهم.

من المُدهش بالنسبة لي أن تحتفظِ المؤلّفة باللُّغة الشعريّة حتّى في أشدِّ لحظات الألم والانكسار، لقد أدركتُ محدوديّة البهجة والثبات والتّوازن في دُنيانا، كما نهلتُ حقاً من جمال المرّض وازتوت وأبدعت في مجال عملها، وكما لو أنّها لم تكن لتكون مُبدعة لولا إصابتها بهذا الدّاء.

كان على هذه المؤلّفة، الإنسانة، المريضة، والطّيبية مُقاومة هذا الطّقس القاسي بطريقةٍ واحدة فقط، وهي أن تتعرّف إليه، تتقبّله، وتُسعد به.. بكلِّ ما فيه من مرارةٍ وتقلّبات، أو كما يقول «سينوزا»: «أنا لستُ سعيداً لأنّني أتدفاً، ولكن لأنّني سعيد.. فأنا أدفئ ذاتي».

المَالُ ..
على مائدة السَّعادة

القال..

على هائدة السعادة

كم ستكون الحياة مختلفة لو أن تأثير السياسة الاقتصادية لا يقع إلا على الدخل دون أن يكون لها تأثير على الحياة الأسرية أليس كذلك!!؟، بحيث يمكن لهذا التأثير أن يترك بأمان لعلماء الاقتصاد فقط ذوي العقلية التقليدية، والذين يُعتبرون غاية في «العجرفة تجاه تشكيل قيمنا أو حسب ما يُطلقون عليها أذواقنا»، وذلك لأنهم يفكرون بلغة المكافآت المالية بشكل آلي أو توماتيكي، ويتجاهلون المكافآت المعنوية التي يحصل عليها المرء من قيامه بتنفيذ عمل ما بشكل جيد.

للمرة الأولى في عام 2013م يحتفل العالم كله باليوم العالمي للسعادة، وهي الدعوة التي أطلقتها الأمم المتحدة في عام 2012م ليكون يوم (20 مارس) من كل عام. وتعتبر الـ «بوتان» تلك المملكة الصغيرة في جبال الهيمالايا هي صاحبة هذا الاقتراح، حيث يتضمن دستور بلادها العبارة التالية: «الناتج القومي من السعادة»، والتي ابتكرته في العام 1971م في عهد الملك «جيجمي وانجيشوك» الذي قال: «إن إجمالي السعادة القومية أهم من إجمالي الدخل القومي». ولضمان تطبيق هذه الفلسفة التنموية لجعل المواطنين سعداء،

اعتمدت «البوتان» مؤشراتٍ عديدةً لقياس تحقيق الأهداف من ناحية الرفاه الاقتصادي والعاطفي والبيئي والصّحي والنّفسي والاجتماعي والسياسي وبيئة العمل الذي أثبتت أنّ هذا التوجّه أدّى بدوره إلى ارتفاع مستوى الدخل القومي، والذي يُعدُّ أيضاً الاهتمام الأوّل لباقي الدول.

ووفقاً لمؤشرات هذا القياس فإنّ من الممكن أن يكون شخصٌ ما مُعدّماً ولكنه سعيدٌ في ذات الوقت، وقد كان «الرّضا» محور شعار اليوم العالمي الأوّل للسعادة، ولم يركز على النمو الاقتصادي، أو زيادة الدّخل وإنّما كانت رسالة الأمم المتّحدة تحت عنوان «الشّعور بالرّضا أكثر من مجرد نمو اقتصادي وأرباح» في إشارةٍ إلى أنّ هذا المعيار هو المقياس الحقيقي للسعادة.

إنّ وجود يومٍ للسعادة.. هو بمثابة تنبيهٍ للإنسان إلى هذا المفهوم ودفعه للتفكير بهذا المعنى وما يتداعى عنه من تبعات على المستوى المعيشي بكلّ أنواعه، وبمجرد بُروز هذا التساؤل حول السعادة الذي تم إقراره كيومٍ عالمي من شأنه أن يُحفز المُجتمعات على ابتكار الوسائل الكفيلة بإسعاد الشعوب وإيجاد طريقة للتنافس، حيثُ من المُفترض أنّ الدول الأغنى.. هي تلك الدول التي تُوفّر الزائد من ثروتها للأمن والأمان، وأنّ يُصبح الهدف الأساسي من السياسة.. هو جعل العالم أكثر ودّاً، ومحبةً وسعادة، وليس منطقة للهجوم والانقراض.

يَحْظَى الاَقْتِصَادِيونَ بِنُفُوذِ كَبِيرٍ، وَلَهُمْ تَأْثِيرُهُمُ الْعَامَ عَلَى الْجَمَاهِيرِ، وَلِهَذَا يُسْهِمُونَ بِصُورَةٍ حَتْمِيَّةٍ بِتَعْزِيزِ الْهَيْبَةِ وَالْاِعْتِبَارِ الْعَامِ لِلدَّوْلَةِ حَيْثُ لِلْمَالِ وَزَنَهُ وَثِقْلُهُ وَأَهْمِيَّتُهُ. وَلَكِنْ «رِيْتَشَارْدَ لِيَارْدَ» الْخَبِيرُ فِي عِلْمِ الْاَقْتِصَادِ وَعُضُو مَجْلِسِ اللُّورْدَاتِ الْبَرِيْطَانِي، قَامَ بِتَأْسِيسِ مُوجِزِ اَنْبِقٍ وَعَرَضِ مُؤَثَّرٍ لِمَا يَسْمَى بِالْمَذْهَبِ الْجَدِيدِ لِلسَّعَادَةِ، وَالَّذِي يَعُدُّ تَجْسِيداً مُعَاَصِراً لِمَذْهَبِ «النَّفْعِيَّةِ» الَّذِي وَضَعَهُ الْفِيلْسُوفُ الْاِنْجَلِيزِي «جِيْرَمِي بِيْنْتَام» الَّذِي يُؤْمِنُ بِأَنَّ سَعَادَةَ أَيِّ مُجْتَمَعٍ تَمِيلُ لِلزَّيْدَادِ كُلَّمَا زَادَ عِدَدُ النَّاسِ الَّذِيْنَ يُوَلُّونَ الْآخَرِيْنَ الْاِهْتِمَامَ وَيَقْدُمُونَ لَهُمْ الْمُسَاعَدَةَ، وَهُوَ أَمْرٌ ذُو أَهْمِيَّةٍ عَظِيْمَةٍ، وَلَا يَنْصَارِبُ مَعَ عِلْمِ الْاَقْتِصَادِ الْمُتَطَوَّرِ.

فِي كِتَابِهِ «السَّعَادَةُ: دَرُوسٌ فِي عِلْمٍ جَدِيدٍ»، وَالَّذِي تُرْجِمُهُ «عَلِي زَيْتُون».. تَعَرَّضَ «لِيَارْدَ» الْاَقْتِصَادِي الْكَبِيرُ إِلَى الْعَدِيدِ مِنَ التَّجَارِبِ وَالْحَقَائِقِ الْجَوْهَرِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَقَدْ دَعَمَ فَرِضِيَّتَهُ عَنِ السَّعَادَةِ بِإِحْصَائِيَّاتٍ مُدْهَشَةٍ يَنْفِي فِيهَا بِشَكْلِ مُتَقَنٍ الزَّعْمَ بِأَنَّ الْاَقْتِصَادَ هُوَ الَّذِي يَقُوْدُ السِّيَاسَاتِ نَحْوَ تَحْقِيقِ مُجْتَمَعٍ فَاضِلٍ. حَيْثُ يَعْتَبَرُ هُوَ أَيْضاً أَنَّ السَّعَادَةَ.. وَليْسَ النَّاتِجُ الْمَحَلِّي الْاِجْمَالِي، هِيَ مَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْمَبْدَأُ الْأَهْمُ فِي السِّيَاسَةِ الْاَقْتِصَادِيَّةِ.

وَكَمَا ذَكَرْنَا.. اِزْتَكَزَ «لِيَارْدَ» عَلَى مَفْهُومِ السَّعَادَةِ إِلَى فِلْسَفَةِ «بِيْنْتَام» وَنَظَرِيَّاتِهِ، وَالَّذِي نَادَى فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بِحَاجَتِنَا إِلَى مَفْهُومٍ أَوْ مَبْدَأٍ يَلْتَفُّ حَوْلَهُ الْجَمِيعُ، مَبْدَأٌ يُوحِّدُ كُلَّ الْقَوَانِينِ وَكُلَّ الْقَوَاعِدِ الْاَخْلَاقِيَّةِ كِي تَتَوَافَقَ مَعَ بَعْضِهَا الْبَعْضُ. وَاعْتِمَاداً عَلَى هَذَا النَّدَاءِ..

اقترح أن يكونَ هدفُ كلِّ القوانين والأفعال هو الوصولُ بالإنسان إلى أقصى درجات السعادة.

وبالتالي فإنه يُمكن الحُكم على عافية ومكانة أيِّ مُجتمعٍ من خلال قياس مدى سعادة أفراده، وذلك من خلال القوانين التي يفرضها عليهم كشعوب، والتي من شأنها زيادة مُستوى إحصاسهم بالرِّضا، وخفض نسبة التّعاسة والبؤس في حياتهم. وإن لم تتمكّن تلك القوانين من تحقيق ذلك.. فهي بلا شك قَوانين غير مجدِيّة، صُمّمت ضدّ مصلحة الإنسان، ومن الواجب تغييرها.. ليتغيّر المُجتمعُ بأكمله.

ويُطلق على هذه النظرية «المدرسةُ النفعيّةُ»، والهدفُ منها هو «أن يعمَّ أكبر قدرٍ من المنفعة لأكبر عددٍ من الناس»، حيثُ يعتمد «بينثام» في نظريته على سيّدين رئيسيّين للبشر وهما (الألمُ والمُتعة)، فكلّ عمل يقوم به الشّخص لا بدّ أن يُأخذ بعين الاعتبار هذين الشّيئين، فإذا كان العمل يقود للمُتعة لأكبر عددٍ من الناس فسيكونُ من الصّحيح القيام به، وإن كان يقودُ إلى العكس أو الألم.. فسيكونُ من الخطأ الإقدام عليه.

والناسُ في هذه النظرية من المُفترض أن يكونوا مُتساوِينَ في الأهميّة، فإننا لسنا أكثر أهميّة منك، ومصلحتي أحسبها بالشكل الذي لا يتعارضُ مع ما هو خيرٌ لك. فنحنُ مثل غيرنا، وغيرنا مثلنا، مهمّا بلغت رُتبتنا، أو منصبتنا، أو عرقنا، أو منزلتنا. وبالتالي فإنّ سعادة كلِّ شخصٍ تُعادلُ وتُحسبُ بالتساوي مع سعادة الآخرين

دُونَ فَرَقٍ فِي دَرَجَتِهَا أَوْ مُسْتَوِيَّاتِهَا.

إِذَنْ.. وَبِنَاءٍ عَلَى هَذِهِ الْفَلْسَفَةِ قَدْ يَتَوَجَّبُ عَلَى كُلِّ مَنْ أَنْ يَكُونَ مُحَايِداً، نَزِيهاً، وَيَعْرِفُ أَنَّ الْآخِرَ أَيْضاً يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ سَعِيداً مِثْلَهُ وَبِنَفْسِ الْقَدَرِ الَّذِي يُفَكِّرُ بِهِ تَمَاماً. وَتَفَكِيرٌ كَهَذَا يَرْتَقِي بِالْإِنْسَانَ وَيَجْعَلُهُ يَتَعَدَّى الطَّبِيعَةَ الْحَيَوَانِيَّةَ فِي الْكِفَاحِ مِنْ أَجْلِ الْبَقَاءِ فَقَطْ، بَلْ سَيَعْتَمِدُ عَلَى بِنَاءِ مُجْتَمَعٍ سَعِيدٍ عَلَى أُسَاسِينَ اثْنَيْنِ، «الأول: أَقْصَى دَرَجَاتِ التَّعَاطُفِ مَعَ الْآخَرِينَ وَمُشَارَكَتِهِمْ مَشَاعِرَهُمُ الْوَجْدَانِيَّةَ، وَالثَّانِي: الْإِلْتِزَامَ بِأَقْوَى الْمَبَادِئِ الْأَخْلَاقِيَّةِ لِلْحَيَادِيَّةِ وَالتَّجَرُّدِ».

الْجَمِيعُ يَجِبُ أَنْ يَحْضُلَ عَلَى الْحَجْمِ ذَاتِهِ مِنَ الْمَنْفَعَةِ الَّتِي نَحْضُلُ عَلَيْهَا. كَمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَدِينَا حِسُّ أَخْلَاقِي تَجَاهَ مَا نَقُومُ بِهِ مِنْ أَفْعَالٍ، وَنُذْرِكُ سَلْفاً أَهْمِيَّةَ عَمَلِنَا، وَمَا هِيَ نَتِيجَةُ هَذَا الْعَمَلِ بِالنُّسْبَةِ لِشَخْصٍ آخَرَ سَيَتَأَثَّرُ بِهِ!!.

يُمْكِنُنِي كإِنْسَانَةٍ عَادِيَةٍ جِداً أَنْ أَوْضِحَ مِثَالاً شَخْصِيّاً هُنَا، وَقَبْلَهَا أَوْدُ الْإِعْتِرَافِ بِأَنَّهُ لَيْسَ لَدَيَّ الْكَثِيرَ لِأَمْنَحَهُ لِلْآخَرِينَ، وَرَبِّمَا لَيْسَ لَدَيَّ الْقَلِيلَ أَيْضاً، لَكِنِّي وَجَدْتُ دَافِعاً كَبِيراً نَحْوَ قُوَّةِ الْحُبِّ وَالْقُدْرَةَ عَلَى التَّعَامُلِ مَعَ الْأَطْفَالِ ذَوِي الْإِعَاقَةِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ تَخْصُّصِي الْعِلْمِي مَعَ فِتْنَةِ الْإِعَاقَاتِ الْعَقْلِيَّةِ ثُمَّ التَّخْصُّصَاتِ الْآخَرَى الَّتِي اعْتَمَدْتُ عَلَى تَدْرِيبِ الْكَوَادِرِ مِنْ أَجْلِ بِنَاءِ أَحْصَائِيَّاتِ قَادِرَاتٍ عَلَى الْإِبْدَاعِ فِي الْمَجَالِ.. بَدَلاً مِنْ تَأْدِيَتِهِ كَعَمَلٍ وَمَضْرِبٍ لِلرُّزْقِ فَقَطْ. قَدْ تَكُونُ طَبِيعَةٌ عَمَلِي هَذِهِ هِيَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي أُجِئُهُ فِي حَيَاتِي.. أَوْ الَّذِي أَمْتَلِكُهُ مِنْ قِيَمَةٍ نَسْتَحِقُّ أَنْ أَعْتَزَّ بِهَا إِنْ

صَحَّ التعبير. في الواقع لقد كان يُهْمَنِي في البدء أن أصل لِهَذَا المُستخلص وأتعرَّفُ بنفسِي على ما أُجِده.. وما لا أُجِده، لأنَّ تقييم مُستوى ما لدينا من مَهَارَاتٍ وَمَوَارِدٍ وَمَوَاهِبٍ يتضمَّنُ ما نملكه من الأشياء الماديَّة، ويتضمَّنُ ما نملكه أيضاً معنوياً من حُبِّ، عَطْفٍ، ابتسامية، مُبادرة، حنانٍ ومواساة.

لا أنكر بأنني قاومتُ كثيراً نصائح من حولي، كما قاومتُ أَنَانِيَّتِي وَبَحْثِي عن بيئة أفضل للعمل، ولكنني توصلتُ في نهاية الأمر إلى قرار استمراري في العمل بجمعية خيرية غير هادفة للربح براتبٍ شهريٍّ يُعتبر مُتواضعاً مقارنةً بعروض العمل الأخرى التي تلقيتها طوال عشرة أعوام هي عُمر مسيرتي العمليَّة، إنَّ المكان الَّذِي ما زلتُ أعمل به إلى هذه اللَّحظة ينعم بالحريَّة، ويخلو من القيود الفنيَّة من وجهة نظري لأنَّه نابغٌ عن الحُبِّ والإيمان بما يجب علينا عمله.

في الحقيقة لم أرَ أن من الحكمة التخلِّي عن حرَّيتي أو لنقل مُيولي، حتَّى لو كان ذلك مُقابلَ راتبٍ مُضاعفٍ وعملٍ مكثبي غير مُجهِدٍ مثلاً في أحدِ المؤسَّسات أو الوزارات التَّابعة لعملٍ حكومي، وقد يكون مُجدياً مادياً لكنَّه لن يتمكَّن بأدائه الرُّوتيني أن يوصلني لكامل طاقاتي في هذا المجال. كما أظنُّ أن أيَّ مكانٍ جامدٍ سأنتقلُ إليه سيكون بعيداً كلَّ البعد عن انتمائي لِمَا أَحَبُّ ولِمَا رَغِبْتُ دوماً في تقديمه.

قد تجدُ غيري من الموظَّفات أن أحدَ عروض العمل مُناسبة

تماماً لتطلعاتها حيثُ أنّ العُروض لم تُكن سيئةً بالقدر الذي أظنه، وإن كان هذا هو خيارٌ إحداهنَّ فبالطبع هو ليس أمر خاطئ أبداً أو أناني، لكنّه فقط لم يكن مُجدياً عاطفياً بالنسبة لي.

ولهذا.. وبحساب مقدار الرّبح والخسارة في قراري لم أجد أنّي قد خسرتُ الكثير حين تخلّيتُ عن مُستقبل مادّي أفضل مُقابل التفكير بالكيفيّة التي يجب أن تسير عليها حياة من يُشاركونني حياتي، ويضبغون عليها المعنى الإنساني الذي أحتّاجه حقاً. فكم هو مُثير للسعادة حين أتمكّنُ بقليلٍ من الجُهد والمُثابرة ووضع الأهداف الصّحيحة من أن أحقق مُعجزاتٍ صغيرة في حياة طفلٍ ما وعائلته.

مُساعدة الأطفال المُصابين بإعاقة ما.. وتأهيلهم وإعطائهم فرصةً للنّجاة من آثار الإعاقة في الوقت المُناسب.. من شأنه التقليل من معدّل الإحباط والشّعور بعجزٍ يُواجهون به مُجمّعهم، حيثُ أنّ هذا المُجمّع ليس بيئة نموذجيّة، بل ليس مُعدداً لهم ولا لاحتياجاتهم للأسف.

باختصار.. إنّه العمل الذي أحبُّ أن أقوم به من أعماقي، والذي قد يُضفي على قلبي بريقاً قد يُطفئه المزيد من المال وعدم الرّضا، لقد أردتُ من خلاله أن يصبح لديّ الكثير من القصص التي أحكيها عن تجارب لأبطالٍ بأجسادٍ صغيرة قاوموا المرّض وأنقنوا التّعامل معه، فهناك أوقاتٌ لدى جميع البشر يَحْتَاجُونَ فيها إلى شخصٍ يؤمن بهم، ويكونُ عليّ حينها أن أخوض مُجرّد تحدٍ

صغير لكسرِ حاجزِ يقفُ بيني وبين إقامة علاقة سليمة معهم، كما يحدث عادةً في بدء التعارف.

والسؤال الهام الذي قام «ليارد» بطرحه في بداية كتابه هو: كيف نستطيع كمجتمع أن نؤثر في سعادة البشر ونُدرك ما إذا كانوا سعداء فعلاً أم لا؟!، وللإجابة على سؤالٍ عريضٍ كهذا، فقد رأى أهمية دراسة المقدمات والوقائع من خلال علم «الاقتصاد الابتدائي» الذي لن أتحدث عنه كعلمٍ هنا.. بالقدر الذي سأجلبُ لكم منه كيف ولماذا نشعر دائماً أن رغباتنا وحاجاتنا غير مُشبعة أو مُلبّاة. وليجبَ على سؤاله.. تعرض «ليارد» أيضاً لأسباب كثيرة تُؤدّي إلى عدم الإشباع، وقد اعتبر أن أهم سببٍ في ذلك.. هو أننا نَعتمدُ بِشكْلِ جادٍ في رؤيتنا وأهدافنا على ما يَمُتلكه الآخرون.. وليس ما نَمُتلكه نحن!!.

ليس مُدهشاً أن يعتلي الحُلم بالمال والغنى أعلى قائمة أمنيّاتنا، رُغم أن جميع الدراسات التي تمّ نشرها وتداولها تُشير إلى أننا بمجرد أن نَصَل لحالة (الاكتفاء الذاتي)، أو تحقيق الحاجات الأساسية، فإنّ مُراكمة أيّ زيادةٍ من المال لن تُضيف شيئاً إلى مُستوى الإحساس بالسعادة، بل إنّ هذه الزيادة سُرعان ما تتحوّل إلى عبءٍ مُباشرٍ.. وغيرٍ مُباشرٍ. فنحنُ كَبشِرٍ نَميلُ بطبعنا للنظر إلى الأمام، والتطلّع إلى المزيد، والحُلم بما ليس لنا، المُشكلة أنّنا بهذا الحُلم لا يُمكن أن نَسْتَمتع بما نَنعمُ به، ولا أن نفكّر في كيفية استدامته.

عندما بدأت بقراءة هذا الكتاب تذكّرت قصة الملياردير الأمريكي «وارن بافت» ثالث أغنى رجل في العالم حين أعلن عزّمه التبرّع بـ 99% من ثروته التي تقدر بـ 44 مليار دولار لمنظمات خيرية، وتمّ اعتبار هذا العمل أكبر تبرّع خيري في التاريخ المعاصر، والذي تمّ تخصيصه بحسب ما أعلن لدعم الأبحاث الطبية ومساعدة الفقراء والمرضى، فضلاً عن تشجيع التعليم والتربية في البلدان الفقيرة. الأمر الذي قالت عنه جريدة «نيويورك تايمز» في صفحتها الرئيسية بأنه جُنُونِي، ولكننا بحاجة إلى مزيد من المجانين.

ومهما يكن رأينا الشخصي في «بيل جيتس» المنافس لـ «بافت» والمؤسس لشركة «مايكروسوفت» والأغنى على مستوى العالم إلا أنّ ملياراته التي يتبرّع بها في رفع المستوى المعيشي في أفريقيا، وأثيوبيا تحديداً تُحدث فرقاً واضحاً على المستوى المعيشي في تلك البلاد الفقيرة.

الغريب.. هو ازدياد ظاهرة عطاء فاعلي الخير الأميركيين وهم على قيد الحياة بمعدلات تجاوزت تبرّعات المتوفّين. فلقد استطاعت سيّدة الأعمال والمُديعة «أوبرا وينفري» التبرّع بمبلغ 40 مليون دولار استُخدمت في بناء أكاديمية للفتيات، وذلك بعد انتهاء فترة الأبارتايد (نظام الفصل العنصري) في عام 1993م، والتي كان لها تأثير سلبي على الأكثرية السوداء في جنوب أفريقيا خصوصاً فئة الإناث. كما تعتبر «غوغل» مؤسسة خيرية حيثُ عمل كل من «بيج وبرين» الشريكين في تأسيسها على التبرّع بأكثر من 110 مليون

دولار وأكثرها لمشاريع تهدف لتطوير الطاقة النظيفة وتوفير حواسيب آلية للفقراء.

ويندو أن مفهوم (الكرم) الذي صاحب هذه الظاهرة الجديدة كما يقول الكاتب «محمد أبو حسبو» يختلف قليلاً عن المفهوم القديم. فالكرم الجديد الذي يُسمى بالإنجليزية Philanthropy يختلف عن الكرم التقليدي Charity في كونه لا يتبرع بصدقة مباشرة للمحتاجين، بل يتبرع لمنظمات تسعى لحل جذور المشكلة وليس عوارضها - على سبيل المثال: دعم منظمة لتعليم أبناء الفقراء بدلاً من أسرهم صدقة، أو دعم كليات الطب والتمريض في بلد ما.. بدلاً عن إرسال العقاقير إليه.

ويرى العديد من الاقتصاديين أن تطوّر ما يسمونه «الكرم الذكي» سيصبح صناعةً كاملة مع اتساع سلطة وثروة القطاع الخاص حول العالم. ولكن لماذا يا ترى يقوم أثرياء العالم الأجانب بتبديد أموالهم الطائلة في عمل الخير بهذا الشكل؟!.

أظنهم يؤمنون بأن التوجّه الذي يتبنونه عند العطاء سوف ينعكس حتماً على الفوائد التي يمكن جنيها، وأن التأثير الإيجابي للعطاء يستمر حتى بعد الممات، أفصّد حين يظّلون أحياء في ذكريات ومشاعر الناس، وقد لا يدركون بالضبط ما سيعود عليهم من نفع مرئي وفوري، أو ربّما معنوي ومؤجّل، لكن لا بدّ أن أحداً ما ذكّرهم بأن واحداً من كلّ أربعة أشخاص في العالم يموتون جوعاً، وأن طفلاً كل بضع ثوانٍ يموت من أمراض كان يمكن

الوقاية منها، وأن 1.5 مليون إنسان في العالم.. لا ينعمون بقدر كافٍ من المياه النقية.

وما أظنه أيضاً هو أن «بافت» الذي اشتهر بعدم إنفاقه على ذاته، والذي ما زال يسكن في منزلٍ من ثلاث حُجرات فقط ويقود سيارته المتواضعة بنفسه.. قد أدرك مؤخراً في سن الثمانين أن سعادة الفرد لا بد أن تكون رهينة بسعادة الجماعة، وأن لا فائدة مَرْجوة من أن يكون الفرد سعيداً بينما يعيش في مُجتمعٍ حزين، أو كما قال بأن «هناك أكثر من طريقة للوصول إلى الفردوس، لكن هذا هو أفضل طريق، نحن نؤمن بأن الثروات التي تتدفق من المُجتمع يجب أن تعود في جزء كبير منها إلى المُجتمع نفسه.. ليستفيد منها».

هذا العمل النبيل يتوافق بالتأكيد مع النظرية النفعية التي تؤكد على أنه مهما كنا نتمتع بالثروة والغنى، فإنه قد نُخفق في تحقيق السعادة التي نتمناها فيما لو لم نتخل عن التصرف على نحو أناني. وحين نستطيع أن نبتهج لخير ورضا الآخرين، سنكون قادرين على أن نحيا بسعادة أكبر. فنحن نشعر بقدر أكبر من السعادة عندما نحس بالشفقة والرأفة تجاه الآخر، وكذلك إذا شعرنا بالامتنان والشكر على ما لدينا.. وما نُقدمه للغير.

وعلى الرغم من أن نظرية السعادة القصوى لـ «بشيام» تعرضت للكثير من الانتقادات من قبل مفكرين كبار وفلاسفة، إلا أن المؤلف يعتقد أنهم أخطئوا جميعاً في فهم المبدأ، وأن فكرة «بشيام» صائبة تماماً، ويمكن التباهي بها دون خوف، وتطبيقها دون خشية، ولكن

بإمكاننا نحنُ القراء إن كانت لدينا تحفظات على هذه النظرية التي اعتمد عليها المؤلف أن تتفق مع باقي أفكار الكتاب دون أن نكون مُتفقين مع أفكار «بنشيام» حيثُ «يُمكن لفكرة واضحة أن تُضيف قوة كبيرة إلى مجموعة من النوايا الطيبة».

من المُهم أن أوضح أمراً هاماً هنا بخصوص العطاء، الذي لا يعني أبداً ولا بالضرورة أنه علينا التبرع بالمليارات أو الملايين التي يُقدّمها أثرياء العالم للعمَل الخيري، إنّما من الضروري أن نُدرك بداخلنا فقط أنّ الحياة لن يكون لها معنى إن استمتعتنا بها وحدنا مهماً كُنّا نملك من المال أو نقتَر إليه، وهذا بالضبط ما يجعلني أتساءل مثلكم إن كان من المُمكن للمال أن يشتري السعادة؟ وإن كان كذلك فلماذا لا يشعر العديد من الأثرياء بالسعادة القُصوى، ولماذا أيضاً نجدُ أنّ الكثير من الفقراء يعيشون بسعادة ورضا؟!.

هناك العديد من الأبحاث التي قرأتها في هذا المجال والتي أُجريت للإجابة على تلك الأسئلة الجوهرية، وكانت من أهم نتائجها على أنّ هناك العديد من العوامل الأخرى التي تُؤثر على السعادة بالإضافة إلى المال، منها الجينات الوراثية مثلاً ووجود علاقات اجتماعية ومُساندة، والأهم من ذلك أن هناك عوامل يُمكنها أن تمحو وتؤثر سلباً على فائدة المال في تحقيق السعادة.

علاقة المال بالسعادة كما يقول العلماء هي علاقة موجبة كلما كانت الحاجةُ إليه كبيرة، أمّا عندما يزيدُ عن الحاجة لحدٍ معيّن فتصبح تلك الزيادة في حياة صاحبها غير مؤثرة ولا تجعله سعيداً

كلما زادت عن ذلك الحد، ولهذا نجد أن الأثرياء ثراءً فاحشاً يبحثون عن سعادتهم في مكانٍ آخر غير مالٍ وهذا ما كان يقوله لي والدي دوماً: المال يُمكن أن نعتّبه رغبةً أو دافعاً أو حاجة، لكنّه ليس حُباً على أيّ حال.

والدي بالمُناسبة يُعتبر خبيراً اقتصادياً أيضاً، عمَل بوظيفة وكيلٍ لوزارة التخطيط في العاصمة الرياض، ولكنّه سرعان ما تخلى عن هذا المنصب حينما كنّا صِغاراً مُقدِّماً استقالته.. ليقوم بتحقيق حُلمه، وذلك بإنشاء مركزٍ صغيرٍ خاصٍ بالاستشارات الاقتصادية والإدارية التي يُجيد العمل عليها، متخلياً عن كلِّ تلك المكانة الاجتماعية والمادية والسياسية وحتى المظهرية منها، ثمّ أتجه بعدها بسنواتٍ ليصبح واحداً من مؤسسي «الجمعية الوطنية لحقوق الإنسان»، كمُستشار تطوعي لدراساتها الاقتصادية والبحثية.

يظلُّ والدي حفظه الله هو الشَّخص الوحيد الذي وافقني على قراري في البقاء في ذات المكان الذي أعمل به بالجمعية مع الأطفال ذوي الإعاقة، لأنّه يرى أنّ العائد المعنوي الذي ينطبع على كلِّ تصرُّفاتي أهمُّ بكثيرٍ من ذلك المادي الذي سيكون عليه منزلي أو مظهري أو طريقة معيشتي فيما لو قررتُ الالتحاق بعملٍ آخر أكثر رفاهية، ويبدو أنّي أشبهه كثيراً ومُؤمنة بما يقوله بأنّ «بمجرد أن ينعم الإنسان بالسُّر المالي فإنَّ المادّة تسقط من قائمة أولوياته»، لقد كان صادقاً معي ومحقاً لأنني لم أكن مُضطرة لأنّ أقبل بوظيفة لا أحبها أو لا أستمتعُ بها كوظيفتي التي أنا عليها

الآن، ولم أكن مُجبرةً أبداً على ترك ما أحبه حباً حقيقياً من أجل قسطن إضافي من المال.

لا أريد أن يظن أحدكم بأنني أستمتع بالمنح أو العطاء فقط دون أن أتلقى أيّ مقابل، فهذا غير لائق أبداً لمفهوم العطاء، لأنّ النفع الذي يعود من عمل كهذا هو نفع متبادل بالطبع، فكلّما شاركنا الآخرين بمهاراتنا التي ننتقنها، فإننا نقوم بصقلها أكثر، وفي ذات الوقت نكتسب من خلالهم مهارات أخرى جديدة، والأهم هو أنّه عليّ أن أذكرُ بأنني فعلاً مارستُ فعل (الأخذِ حباً) أكبر.. وأكثر بكثير ممّا أعطيت.

أعتقدُ بأننا حين نتعرّف على مكانة المال في أنفسنا، وطريقة إنفاقنا له فإننا ستمكّن من تحديد قراراتنا باتجاه ما نُحبّ القيام به فعلاً، لقد عرّفنا عائلات ثرية جداً غارقة في الديون، وأخرى أشهّرت إفلاسها لأنهم كانوا يعتقدون ربّما أنّ المزيد من الأشياء التي يمتلكونها قد تُخفف عنهم وطأة الألم، أو أنّها في أحسن الأحوال ستُجلب لهم المزيد من الأمان، ولكنّ الآل يرغبُ العديد من الأغنياء بمقايضة أموالهم بلحظة راحة، أو بحبٍ حقيقي، أو بطفلٍ لم يُرزقوا به، أو بإنهاء معاناتهم من مرضٍ ما؟؟.

إنّ تحقيق التوازن بين الماديّ والمعنوي يعدُّ أحد أكبر التحديات التي علينا مواجهتها، حيثُ يختلف مستوى التوازن الذي أهدفُ للوصول إليه مع مستوى التوازن الذي تُشده أنت أو يُشده بقيّة الناس، فذلك يعتمد على ظروف ومشاعر وأحلام كل منا، لكنّ

الأمر الذي يجب أن نتفق عليه جميعاً هو أننا سنحاول وسنظل نحاول طوال رحلتنا في الحياة أن نحصل على توازن مناسب يشعرنا بالرضا عن طريقة عيشنا بناءً على أولويات كل منا، وذلك لأن التوازن المثالي أمرٌ من المستحيل تحقيقه.

وقد استعرض المؤلف في كتابه مجموعة من استطلاعات للرأي على مرّ العصور أشارت إلى أن الناس في المجتمعات الغربية، أصبحوا في السنوات الخمسين الماضية أغنى ممّا كانوا عليه بكثير، ويعملون أقل بكثير ممّا اعتادوا عليه، ولديهم عطلات أطول، ويسافرون أكثر، ويعمّرون أكثر، ويتمتعون بصحة أفضل، وغذاءً أفضل، وتدفئة، وسيارات، وتكنولوجيا ساجرة مسخرة لخدمتنا، ولكنهم على الرغم من ذلك فإنهم ليسوا بأسعد حال من الأجيال السابقة.

هذه الحقيقة المتناقضة من المفترض أن تجعلنا نعيد تقييم طموحاتنا وصياغة أهدافنا من خلال الأبحاث العلمية والحكومات والأفراد ليعيدوا طرق التفكير في تحسين مستوى السعادة. ولهذا ربّما اقترح المؤلف تفسير، أو تحليل المعدل الوسطي للسعادة في بلد من البلدان مقارنة مع بلد آخر بواسطة ستة عناصر محورية هي ذاتها التي يتم استخدامها أيضاً لتفسير معدل (الانتحار). وهذه العناصر الستة هي: النسبة المئوية لكل من: الذين يقولون إن بالإمكان الثقة بالآخرين، الذين يتّمون لتنظيمات اجتماعية، معدل الطلاق، معدل البطالة، نوعية نظام الحكم، المعتقدات الدينية.

وفقاً لما يفترضه علم الاقتصاد كما ذكرنا سابقاً.. فإنَّ رغبتنا غير مشبعةٍ لأنها نَعْتَمِدُ بِشَكْلِ كبير على ما يملكه الآخر، كما تتأثرُ هذه الرغبات بالتربية والإعلان والتلفاز وأكثر ما يقودها إلى الجنون ويحركها هي الرغبة في التساوي مع الناس ومُجاراتهم، إنه سباقٌ ينتهي بخسارة (الرضا)، ولهذا فإنَّ رغبتنا في أن نعرف قيمة ما نملكه في عيون الناس ومقارنتنا بهم تُشكّل سبباً هاماً لعدم ارتفاع مُستوى السعادة لدينا. فالإنسان كما يقول الفيلسوف الفرنسي «مونتسكيو» «لا يريد فقط أن يكون سعيداً، بل أكثر سعادةً من الآخرين، ولذلك فإنَّ الشعور بالسعادة أمرٌ عسيرٌ لأننا نرى الآخرين أكثر سعادةً منا». هناك سببٌ آخر أيضاً لعدم الشعور بإشباع الحاجات كما يؤكد «ليارد» وهو يتجسد في الاعتياد الذي يعني مقارنة واقعنا الحالي مع ما اعتدنا عليه من قبل، فعندما نحصلُ مثلاً على منزلٍ جديد، أو سيارةً جديدةً نشعرُ بالإثارة في بادئ الأمر، لكن عندما نعتادُ عليهما.. تميلُ أمزجتنا نحو العودة إلى ما كانت عليه من قبل، أي أن الإثارة تتوقف وسرعان ما نشعرُ بحاجتنا إلى منزلٍ أكبر، وسيارةٍ أفضل وهكذا، فلو أننا استبقينا منزلنا وسيارتنا الحاليين سنصبح أقلَّ سعادةً بكثير مما كنا عليه قبل أن نخوض تجربة الشيء الأفضل. وهو أمرٌ تفهمه مؤسسات الدعاية والإعلان فتدعوننا إلى مزيد من الصرف والإغراء أكثر.. وأكثر لنُشبع إدماننا على الإنفاق. نحن في الحقيقة لا نستخفُ بعملية الاعتياد بل نُوليها ما تستحقُّ من اهتمام، ونتيجة لذلك تنجرفُ الحياة نحو زيادة العمل، وزيادة في

الكسبِ والمالِ فَحَسَب، والذي قد يَكُون على حِسابِ اعتباراتِ هامةٍ أخرى كالصحةِ والعائلةِ مثلاً.

يحدثُ ذلكَ حينَ نُقارنُ أوَّلَ مِلعقةٍ في طَبقٍ لذيذٍ مع آخرِ مِلعقةٍ، لِهَذَا فإن كُنَّا نرغَبُ في تناولِ طعامٍ مُميّز، وحتّى إن كُنَّا نتصوّرُ جوعاً، فلنحرص على أن نلتذذَ بما نأكله لقمّةً.. لقمّةً، والأهم أن نَتشاركَ فيه مع شخصٍ نُحبُّه. لأنَّ السَّعيَ نحو ما نُسميه تحقيقِ الذاتِ لن يَكُون ذا جدوى إن كُنَّا نعتبر أن واجِبنا تجاه الحياة.. هو تحقيق ما هو الأفضل لأنفسنا فقط، سنعيشُ حالةً من الإجهادِ والتوترِ والتعبِ والوَحشة، ومع ذلك إن تمعنا في حياتنا قليلاً، إن توقَّفنا لحظةً ونظرنا إلى ما بين أيدينا قد ننتبه بأنَّ لدينا بعضَ أمورٍ لا يُمكن أن نعتادها، ولا يمكنُ أن نبحثَ عن الأكثر منها إثارةً. هناكَ أمورٌ لا تنهتُ، ولا يُصيبها الشُّحوب، كالوقتِ الذي نُمضيه مع الأشخاصِ الَّذِينَ نُحبهم مِنَ الحبيب، مع الأهل والأطفال والأصدقاء.

وفي هذا الصِّدد يقولُ «ليازد» حينما يفوز الناسُ بـ (اليانصيب) على سبيلِ المثال.. فإنَّهم «يشعرون في البدء بزيادةٍ كبيرة في الشُّعور بالسَّعادة.. ثمَّ تهبطُ إلى المستوى السابق، إذن.. لماذا يُريدُ الناسُ أن يفوزوا بـ (اليانصيب)؟!»، إنَّهم يُركِّزون على فترةٍ قصيرةٍ ويبدو أنَّهم غيرِ معنيين بالطرائق ذات الأمد البعيد للكيفيَّة التي تعملِ وفقها مشاعرهم». وأظنُّ أنَّ العديد منكم سَمِعَ عن حكاياتٍ مُرعبةٍ حولِ التأثيرِ السُّلبي للمالِ الذي تمَّ اكتسابه فجأةً أو لـ - مُحدِثي النُّعمة

- كما نطلق عليهم بالعامية، وبخاصة من تقلبت أوضاعهم بغمضة عين بين الفقر البائس إلى الثراء الفاحش.

ولكن إن كان هذا ما حصل للبعض من مأس جراء الثراء المفاجئ والسريع، ألا يخطر ببال أحد منا ماذا حل بالبقية ممن حصلوا على جائزة ك (اليانصيب) وعاشوا بسعادة!!، ألا يمكن افتراض أن وسائل الإعلام قد ركزت على الحالات التي انقلبت حياتهم جحيماً بعد الفوز أكثر من النماذج الإيجابية؟! كل شيء جائز.. أليس كذلك؟!.

إنما الواضح فعلاً.. هو أن هناك أغنياء ما زالوا يبحثون عن السعادة ويشعرون أنهم لا يملكون المال الكافي، بينما هناك أشخاص يعيشون حياة متواضعة وراضية بما يملكون من موارد. ما أعرفه أنه لا يمكننا أن نصافح أحداً إذا ما ظلت أيدينا في جيوبنا تلمس ما نملكه من نقود، كما أننا لن نستطيع أن نتسلق بها، أن نكتب، أن نساعد، أو أن ندافع، أو أن نتجنب الأخطار.

اعتبر «ليارد» أن المرء من المستحيل أن يكون سعيداً دون تطويره لطريقة إيجابية ينظر بها، وعبرها ومن خلالها للأشياء!، فالأغنياء الذين يُصرفون أكثر ممّا يملكون من المال يشعرون بالفقر، وأنّ الفقراء الذين يعيشون في ظلّ ما لديهم من إمكانيات يشعرون بالأمان، وهذا يعني أنه بغض النظر عن دخلنا اليومي أو الشهري أو السنوي فإنّ طموحاتنا ورغباتنا التي نريد إشباعها..

هي مَا تُحَدِّدُ مَدَى غِنَانَا أَوْ فَقْرِنَا، وهي التي تُلَوِّنُ رِضَانَا، أَوْ عَدَمُ رِضَانَا عَنِ الْحَيَاةِ الَّتِي نَعِيشُهَا، وَلَا نَنْسَى الْقَاعِدَةَ الْمَثَالِيَّةَ الَّتِي تَزِيدُ مِن رِضَانَا عَنِ أَنْفُسِنَا، وهي.. لكي نحصلُ على الحُبِّ أَوْ السَّعَادَةِ فَإِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَمْنَحَهُمَا أَوْلَى.

نحنُ بِحَاجَةٍ إِلَى تَطْوِيرِ الْإِحْسَاسِ الْإِيجَابِيِّ الدَّاخِلِيِّ لِمُوَاجَهَةِ الْأَحْدَاثِ الْخَارِجِيَّةِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَقَعَ، وَكَذَلِكَ إِثْرَاءَ حَيَاتِنَا بِمُوهَبَةِ الْعَطَاءِ، وَإِطْلَاقِ قُدْرَاتِنَا لِاخْتِبَارِ سِرِّ مُسَاعَدَةِ الْآخَرِينَ، وَقَدْ تَكُونُ الصُّعُوبَةُ الَّتِي يَعْانِيهَا مَعْظَمُنَا فِي تَطْوِيرِ أَيِّ مَهَارَةٍ كَالْتَفْكِيرِ الْإِيجَابِيِّ وَمَدِّ يَدِ الْعَطَاءِ، هِيَ عَدَمُ تَوْفُرِ نَوْعٍ مِنْ أَنْظِمَةِ الْمُسَاعَدَةِ أَوْ شَكْلِ مِنْ أَشْكَالِهَا الَّتِي تَأْخُذُ بِيَدِنَا نَحْوَ تَحْقِيقِ الْهَدَفِ.

وَلَكِنْ لِحُسْنِ الْحِظِّ كَمَا يَقُولُ الْمُؤَلِّفُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَنْظِمَةِ مُوجُودَةٌ وَمُتَوَفَّرَةٌ، مِثْلَمَا هِيَ مُتَوَفَّرَةٌ لِإِتْقَانِ الْعَزْفِ عَلَى الْكَمَّانِ، فَمَتَى مَا رَغِبَ أَيُّ مَنَّا فِي أَنْ يُضْبِحَ عَازِفَ كَمَّانٍ بَارِعٍ، مَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَعْزِفَ قُرَابَةَ عَشْرَةِ آلَافِ سَاعَةٍ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ سَنَةَ الثَّامِنَةِ عَشْرِ، كَمَا عَلَيْهِ أَنْ يَدْرُسَ عَلَى يَدِ كَفَاءَاتٍ وَمُدْرَسٍ مَاهِرٍ، لِأَنَّهُ مَا أَنْ يَنْتَهِيَ مِنْ فِعْلِ هَذَا.. حَتَّى يَكُونَ قَدْ أَحْدَثَ تَغْيِيرًا جَذْرِيًّا فِي الدِّمَاغِ بِوَسِطَةِ زِيَادَةِ عِدَدِ حَلَقَاتِ الْارْتِبَاطَاتِ الْعَصْبِيَّةِ بَيْنَ الْخَلَايَا الْخَاصَّةِ بِهَذِهِ الْمَهَارَةِ. وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ يُمَكِّنُنَا تَطْوِيرُ أَنْفُسِنَا عَلَى مَهَارَاتٍ تَجْعَلُ مِنْ مُسْتَوَى إِحْسَاسِنَا بِالْأَشْيَاءِ إِيجَابِيًّا، وَتَجْعَلُ مِنَّا فِيمَا بَعْدَ بَشَرًا سَعْدَاءَ.

أَعْلَمُ جَيِّدًا بِأَنَّي سَعِيدَةٌ بِعَمَلِي، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّي أَعْرِفُ

الكثير من الأطفال الذين ليس بمقدورهم الحصول على الشفاء التام، أو تحقيق أبسط أمنياتهم بالمشي أو الكلام، كما أنني فقدتُ أطفالاً للأبد، لم يستطع أحدٌ منا إنقاذهم من قدر الموت، ولكنني بمساعدة البقية من الذين ما زالوا يتسّمون ويمرّحون يصبح بإمكانني تضميد الجراح، والتخفيف من وطأة معاناتي ومعاناتهم.

وبإمكانني أيضاً بدعوة أسمعتها من أم أحد الأطفال أن أنطلق بطاقة وحماسة من جديد، وفلا بدّ أن يكون (الموت) هنا هو ضريبة التوازن من أجل الحياة، يدفعها البعض منهم ليعيش وينجو البقية. كما أن قدرأ ضيلاً من العطاء.. قد يساهم بشكل كبير ورحيم، وقد يكون كفيلاً بأن نترك العالم.. هذا العالم بحال أفضل ممّا وجدناه عليه.

مكتبة

t.me/soramnqraa

النُّجَاحَاتُ ..
عِنْدَمَا تُصْبِحُ أُوبِئَةٌ

النَّجَاحَاتِ..

عِنْدَهَا تُصْبِحُ أَوْبَةٌ

السَّعَادَةُ هِيَ رَأْسُ مَالٍ أَنْفَعَالِي نُضَرِّفُهُ مِنْ أَجْلِ الْحُصُولِ عَلَى نَتَائِجٍ جَذَابَةٍ أُخْرَى. وَلَكِنْ اِحْتِمَالَاتِ حُصُولِنَا عَلَيْهَا تَبْدُو لَنَا مُبْرَمَجَةً، جَاهِزَةً، مُنَمَّطَةً، وَمُعَدَّةً دَاخِلِنَا سَلْفًا بِخَطَوَاتٍ وَأَهْدَافٍ طَوِيلَةٍ أَوْ قَصِيرَةٍ الْمَدَى، فَيَطْبَعُنَا جَمِيعًا نَحْبُ أَسْلُوبَ التَّدْرُجِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الْمُغَامَرَاتِ، وَالصَّفَقَاتِ الْجَرِيئَةِ، لَكِنْ عَالَمِ «نُقْطَةِ التَّحْوُّلِ» الَّذِي سَتَحَدِّثُ عَنْهُ هُنَا، هُوَ مَكَانٌ يُصْبِحُ فِيهِ غَيْرُ الْمَتَوَقَّعِ.. مُتَوَقَّعًا، بَحِيثٌ يُمَكِّنُ لِلتَّغْيِيرِ الْجِذْرِيِّ أَنْ يَكُونَ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ مُحْتَمَلٍ، بَلْ بَاتَ حَتْمِيًّا وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ خُطْوَةٍ، أَوْ قَفْزَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ.. لِلْأَمَامِ.

«مَالِكُومَ غَلَاذْوِيلِ Malcolm Gladwell» مَوْلَفُ كِتَابِ «The Tipping Point/نُقْطَةُ التَّحْوُّلِ» اسْتَطَاعَ أَنْ يَدَوِّنَ مِثْلَ هَذِهِ (النَّقَاطِ) الْحَرِجَةِ وَيُؤَطِّرَهَا بِـ «كَيْفَ يُمَكِّنُ لِلْأَشْيَاءِ الصَّغِيرَةِ أَنْ تُحَدِّثَ تَغْيِيرًا كَبِيرًا؟». تَمَامًا.. كَمَا يُمَكِّنُ لِأَصْغَرِ شَرَارَةٍ أَنْ تُضِيءَ حُجْرَةَ مُعْتَمَةٍ، أَوْ كَمَا لِشَعْلَةٍ رَقِيقَةٍ أَنْ تُنِيرَ أَعْلَى الْقِمَّةِ.

«نُقْطَةُ التَّحْوُّلِ» مُصْطَلَحٌ يَعْنِي اللَّحْظَةَ الْحَرِجَةَ، وَيُسْتَعْمَلُ عَادَةً فِي «عِلْمِ الْأَوْبَةِ» حِينَ يَرِغِبُ الْعُلَمَاءُ فِي وَصْفِ انْفِجَارِ وِبَاءٍ مَا، أَوْ انْتِشَارِهِ فِي الْمُجْتَمَعِ، مِمَّا يُثِيرُ الْفُضُولَ وَالتَّسَاوُلَ حَوْلَ إِمْكَانِيَّةِ

معرفة الأسباب والطرق التي يُمكن بها إنقاف انفجاره بين الأصحاء، ثم معالجة الأشخاص المُصابين.

وقد كان «غلاذويل» يعمل مُراسلاً في صحيفة «واشنطن بوست» حين أسندت له مهمة تغطية انتشار وباء (الإيدز) في عام 1982م، حيث حدثت «نقطة تحوّل» قاتلة لهذا الوباء، والذي صُنّف في فترة قصيرة جداً كوباء عالمي، وهو ما جعله يتوقّف عند الطريقة المُخيفة التي تنتشر فيها الأوبئة بسرعة، وأحياناً دون سابق إنذار، وهذا الحدّ تماماً.. هو ما جعله يتساءل فيما لو كانت الأشياء الأخرى كالأعمال التجارية، الموضة، الأفكار، التيارات، المُنتجات، والإعلانات لها نفس خاصية تحوّل الأوبئة.. وانتشارها!!.

ولهذا ربّما أطلق المؤلف على «نقطة التحوّل» هذه صفة «الوباء - Epidemic»، حيث يعتقد بأنها لحظة سحرية يُمكن فيها لفكرة، أو تيار، أو سلوك اجتماعي، أو عتية مُعينة، أو قفزة صغيرة أن تتحوّل وتنتشر مثل نار مُستعرة!! فمثلما يستطيع مريض واحد أن ينشر وباء ما، تستطيع أيضاً دفعة أو حركة صغيرة أن تكون شيئاً رائعاً، وأن تُحدث ضجة، وجلبة شعبية، وإقبالا جماهيرياً مفيداً يُشعرنا بمستوى السعادة الذي نرضى به.

من المبادئ الجهورية للسعادة أن نعتبرها عملية مُستمرة، وليست وجهة أو مكاناً ينتهي بِمجرد الوصول إليه، وفي هذا الإطار تُصبح (النقطة) شيئاً يُمكن أن (يُحوّل) حياتنا للأفضل إن أردنا أن

نُرَكِّزُ عَلَى الْجَانِبِ الْإِيجَابِيِّ مِنْهَا.. أَوْ لِلْأَسْوَأِ فَيَمَّا لَوْ جَرَتْ بِنَا
الْأُمُورِ لَمَا لَا نَتَمَنَّا.

كَمَا يُمَكِّنُ لِلنَّقْطَةِ أَنْ تُصْبِحَ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ كَمَا يَقُولُ
الْمُؤَلِّفُ "أَفْضَلُ طَرِيقَةٍ لِفَهْمِ كَيْفِيَّةِ بَرُوزِ تَيَّارَاتِ الْمَوْضَعِ وَانْتِشَارِهَا
بِسُرْعَةِ الْبَرَقِ، أَوْ الْأَسْلُوبِ الْأَمْثَلِ لِحَفْضِ مُعَدَّلَاتِ الْجَرِيْمَةِ، أَوْ
تَحَوُّلِ الْكُتُبِ الْمَجْهُولَةِ إِلَى تِلْكَ الْأَكْثَرِ مَبِيعاً، أَوْ مَعْرِفَةِ الْأَسْبَابِ
التَّافِهَةِ الَّتِي رَفَعَتِ النُّسْبَةَ الْمُخِيفَةَ بَيْنَ الْمُدْخِنِينَ مِنَ الْمُرَاهِقِينَ، أَوْ
شَكْلِ انْتِشَارِ الشَّائِعَاتِ، أَوْ أَيِّ عَدِيدٍ مِنَ التَّغْيِيرَاتِ الْأُخْرَى الْعَامِضَةِ
الَّتِي تَعْمَلُ بِمِثَابَةِ (أَوْبَثَّة) لِأَنَّهَا تَنْتَشِرُ تَمَاماً مِثْلَمَا تَفْعَلُ الْفَيْرُوسَاتُ".
كَذَلِكَ تُعَدُّ «نُقْطَةُ التَّحَوُّلِ» تَعْرِيفاً لِمُصْطَلِحٍ قَدِيمٍ هُوَ «الْأَزْمَةُ»،
حَيْثُ تَرْجِعُ أَصُولَ الْمُصْطَلِحِ التَّارِيخِيَّةِ إِلَى الطَّبِّ الْإِغْرِيْقِيِّ، بِمَعْنَى
أَنَّهَا لِحِظَةٍ قَرَارٍ حَاسِمَةٍ فِي حَيَاةِ الْمَرِيضِ، وَتُطْلَقُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى
حُدُوثِ تَغْيِيرِ جَوْهَرِيٍّ وَمُفَاجِئٍ فِي الْجِسْمِ. كَمَا يُعْرَفُ قَامُوسِ
-وِبْسْتِر- لِللُّغَةِ الْإِنْجَلِيزِيَّةِ «الْأَزْمَةُ» عَلَى أَنَّهَا نُقْطَةُ تَحَوُّلٍ لِلأَحْسَنِ
أَوْ لِلْأَسْوَأِ، سِوَاءٍ فِي مَرَضٍ خَطِيرٍ أَوْ خَلَلٍ فِي الْوِظَائِفِ، أَوْ تَغْيِيرِ
جَذْرِيٍّ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ.

وَيَبْدُو أَنْ لِكُلِّ مَنَا «نُقْطَةُ تَحَوُّلٍ» فِي حَيَاتِهِ يُمَكِّنُ أَنْ يَقُولَ
عَنْهَا بِأَنَّهَا قَلَبَتْ دُنْيَاهُ رَأْساً عَلَى عَقْبِ، أَوْ أَنَّهَا غَيَّرَتْهُ 180 دَرَجَةً،
أَوْ نَقَلَتْهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ سِوَاءٍ كَانَ ذَلِكَ الْإِنْتِقَالَ إِجْبَابِيًّا أَمْ سَلْبِيًّا
كَمَا ذَكَرْنَا، فَهِيَ نُقْطَةُ الْإِنْطِلَاقِ إِذْنِ الَّتِي جَعَلْتَنَا عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ
الْآنَ، إِنَّهَا بِبَسَاطَةٍ.. (النُّقْطَةُ) الَّتِي جَعَلْتَنَا نَتَوَقَّفُ أَوْلاً ثُمَّ نَنْتَقِلُ مِنْ

(هنا)... إلى (أول السطر).

لم أكن قد أنهيتُ دراستي في عام 2002م حين بدأتُ الكتابة بـ (ميلاد)، أقصدُ الاسم المُستعار الذي اخترته على ساحة (الإنترنت)، والتي كانت شاهداً على مخاضي على أرض واقع يولد أطفالها بأسماء لم يختاروها، أعلمُ مدى الازدواجية التي تسبب بها الاسمان (هيلدا - ميلاد)، لكنني أحببتُ ميلاد لأنها كانت صمّام أمانٍ لحياةٍ مُهدّدة، أو مُعرّضة لمُداهمة مُجتمعٍ مُحافظ.

ولأننا نحتاجُ جميعاً لأشخاصٍ يؤمنون بنا في وقتٍ لم نُكن فيه نُؤمن بأنفسنا، فإنَّ إيماناً كهذا لم أجده في ذلك الوقت إلاّ في هذا الفضاء الإلكتروني، أو ما يُسمّى بالحاضن الاجتماعي، إنّه الطريقُ الذي سمحَ لنا بإقامة علاقات إنسانية أجمل من واقع نعيش فيه بأجسادنا وبين أناسٍ يخشوننا ونخشاهم.

الإنترنت.. أحدُ أجمل المُجتمعات المُفتوحة التي حلمنا بها كـ (جيل إنترنتي) بامتياز، ولم أشعر يوماً برغبتني في التركيز على الطريقة.. بقدر الرّغبة في استثمار هذه العلاقات وتحقيق نتائج على المُستوى الإنساني ثمّ الأدبي. ولهذا قرّرتُ استعارة اسم (ميلاد) قبل أن أتقدّم خطوةً واحدةً باتجاه الحقيقة، وأن لا أتعبّل نتائج ما زرعتُ قبل أن أزوي حُقولي، وأن أحاول ببراءة أحياناً تعويدُ المُجتمع تدريجياً على تقبلي، ووجودي، وكتاباتي.

العالم من حولنا قد يبدو مثل مكانٍ ثابتٍ غير مُتحرك، ولا سبيل لتغييره، لكنّه بالفعل، وبالتجربة ليس كذلك أبداً، فمع أقلّ

دفعه، والقصدُ بالطبع (دفعه في المَكَانِ الصَّحِيحِ) يُمكن تحوِيل علمنا، تعديلُ اتِّجاهه، وتبديله من حالٍ لآخر أيضاً.

ولكن هذا يختلف تماماً مع تلك النظرية الأخرى التي تُؤمِّنُ بأنَّ من المُستحيل لشخصٍ ما تحقيقَ نجاحٍ خارقٍ من قفزةٍ واحدة.. وبشكلٍ سريعٍ، لأنَّ الوصولَ إلى قِمَّةِ النَّجاحِ كما تقولُه النظريةُ المُختلفة يتطلَّبُ الصَّعودَ حُطوةً.. حُطوةً، بمعنى أنَّ «نُقطةَ التحوُّلِ» التي يتمُّ طرحها في هذا الكِتَابِ.. لا تتوافق مع نظريةِ «التدرُّجِ»، ولا تتوافق كذلك مع نظريةِ أنَّ التَّجوميَّةَ السَّريعةَ هي (فُقاعةُ صابونٍ)، أو (بالون) تمَّ حشوَه إلى مرحلةٍ قابلةٍ للانفجار، أو منطِقة الانهيار الحادِّ، أو الهبوطِ المفاجئِ.

أعرفُ تماماً أنَّ الإنسانَ وحدهُ تُحرِّكه إرادته وإحساسه، وبما أنَّني لم أكن يوماً نهرًا أو شجرةً أو تمثالاً، فالحنين للبدائيات ليس (سَرًّا) على ما يبدو، ولذلك لا أحجُلُ أبداً من تصنيفي ضمن أدبَاء أو جِيلِ الإنترنت، هذا على الأقلِّ لم يجعلني أتملِّق يوماً أو أرسلُ نُصوصي إلى إحدى الصفحات الثقافية راجيةً أن يقبلوا بها.

ومن ناحيةٍ أخرى.. لقد قمتُ باستغلالِ سنواتي الأجمَلِ في كِتابة ما كنتُ سأكتبه بعد أعوامٍ عديدهٍ من لحظة دخولي من البوابة التقليدية للنشر في الصفحات الثقافية، (الشَّعرُ).. عِندي مسافةٌ تجاوزتها بامتطاء الإنترنت، ولو لم يكن هناك «أدب إنترنت» لظلتُ أنا وأمثالي ربعَ قرنٍ آخرٍ دونَ أن نتمكَّن من إنتاج أعمالنا أو نشرها في كتابٍ.. أو ديوانٍ.. أو حتَّى مقالةٍ في صحيفةٍ واقعيةٍ.

أحدت عن الإنترنت.. ولا أعني هنا بالطبع عُرف الدرسة الحوارية أو مواقع الترفيه، أو اللامسؤولية واللامبالاة والتي لا أذكر أنني زرتها يوماً، لكنني أحدت عن أثر الإنترنت على الإبداع بشكل عام على المرأة خاصة في الدول الخليجية، وأثر الواقع الافتراضي الذي استخدمناه كبديل من أجل إطلاق شراراتنا الأولى.

وهذا ما قاله مرة الشاعر البحريني «قاسم حداد»: بأن «مجرد فكرة قدرتنا على الاتصال بكل من يجلس أمام جهازه الشخصي في أية غرفة صغيرة، في أي منطقة من العالم، هي فكرة تتصل بالشعر كثيراً، الأمر الذي يؤكد يوماً بعد يوم بأن العالم هو ضرب من الشعر بطريقة أو بأخرى».

نعم.. نحن جيل إلكتروني لجأنا إلى الإنترنت كملجأ لقلوبنا التي بدأت تتعلم كيف تكتب ذاتها وتلمس الأشياء بأنامل نجت من الكسر، والطرق على أبواب ونوافذ الصحف، ونجت كذلك من أن نصدم بوجهها حين يقوم ببعثره مقص رقيب خارجي يفرض وصايا خارجية.. لم نعد في هذا الزمن نؤمن بفعاليتها.

أتذكر أثناء إحدى رحلاتي بالطائرة قرأت لـ «ريتشارد كارلسون/ Carlson Richard» سلسلة كتب للجيب بسيطة وبديهية بعنوان «لا تهتم بصغائر الأمور، فكل الأمور صغائر»، حيث تدور فكرتها حول كيفية منع الأشياء الصغيرة من السيطرة على حياتنا، وظننت أنني سأستنكر الفكرة التي طرحها «غلاذويل» هنا عن أشياء صغيرة لها القدرة على إحداث فروق أكبر، لكنني حقاً استمتعت

باللغة المُزدوجة بين هذين الإصدارين، وذلك كنوعٍ من المُفارقة أو التنافر أو انعدام الانسجام، وأحياناً في التآليف بين عناصر مُتباعدة ومُختلفة، أو المزج بين حقائق مُتباينة في طبيعتها.

إنما ما يميّز كتاب «نقطة التحوّل» فعلاً هو التحليل الوثائقي والموضوعي عبر أحداثٍ واقعيةٍ ودراساتٍ حَدثت بالفعل، والذي سيُقوم منكم بقراءة الكتاب بدقّة سيُتساءل مع ذاته الكثير من الأسئلة كما حَدث معي تماماً، وسأحاول هنا تلخيص تساؤلاتي في سؤالين بسيطين، الأوّل: لماذا انتشرت بسرعة بعض الأفكار الصغيرة مثل (مطعم كيتاكي KFC، مقهى ستاربكس Starbucks)، أو لماذا ظهرت أنماط من السلوك مثل (التدخين، إذمان ماسنجر البلاكبيرري والواتس أب)، أو لماذا اندلعت بعض أنواع التقنية كـ (تويتر، فيسبوك، كيك، انسْتِجرام) أو كيف تفاقمت المُشكلات والظواهر الاجتماعية مثل (العنف، البويات، الإيمو، الدرباوية، المُسلسلات التركية)، أو كيف كُبرت بعض المُنتجات وأصبحت ماركات عالمية كـ (بيربري BURBERRY، جوتشي GUCCI، كوكو شانيل Coco Chanel)، أو لماذا تمّ تقليدُ صيحات المُوضة بين الشباب كـ (الكُدش، طيْحني، التأتو)، بمعنى لماذا نجحت كلُّ هذه الأشياء في إطلاق ذاتها كـ (وباءٍ) سريع الانتشار.. فيما هنالك أشياء أخرى لم تستطع أن تفعل ذلك؟ بل لم نسمع عنها، ولم يتم تداولها عبر الصّحف كما تمّ ظلّمها إعلامياً رُغم جودتها؟؟

أمّا السؤال السُّؤال الثاني: ما الذي نستطيع فعله كي نستهلّ

وَبَدَأَ بِشَكْلِ مَتَعَمِّدٍ فِي نَشْرِ أُوبِيَّةٍ إِيْجَابِيَّةٍ.. يُمْكِنُ أَنْ نَتَحَكَّمَ بِهَا؟!..
 إِنَّهُمَا سُؤَالِيْنَ مُنْطَقِيَيْنِ عَلٰى مَا أَظُنُّ، اسْتَطَاعَ الْكَاتِبُ لِحَسَنِ حَظِّيِ
 الْإِجَابَةَ عَلَيْهِمَا بِشَكْلِ غَيْرِ مُبَاشِرٍ مِنْ خِلَالِ عَرْضِهِ لِلْعَدِيدِ مِنْ
 التَّجَارِبِ عَنِ الْمُنْشَأَتِ الصَّغِيرَةِ وَالْكَبِيرَةِ.. وَالتِّي أَصْبَحَتْ جُزْءًا
 مِنْ حَرَكَةِ الْحَيَاةِ، أَوْ مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ جَدَلِيَّتِهَا عَلٰى الْأَقْلِ.

وَإِنْ كَانَ يَنْبَغِي أَلَّا تَسْتَدْرِجُنَا الصُّورَةَ الظَّاهِرِيَّةَ لِمَعْنَى نَظْرِيَّةِ
 «نُقْطَةُ التَّحَوُّلِ» وَأَنْ لَا نَحْسَبُ أَنْ نَشْرَ أَيَّ وَبَاءٍ، أَوْ تَحْوِيلِ أَيِّ
 مِنْهُ إِلَى نَجَاحٍ سَرِيْعٍ يَقُومُ فَقَطْ عَلٰى التَّفَاوُلِ السَّادِجِ!! وَلَكِي
 يُقْنَعُنَا بِنَظْرِيَّتِهِ.. يَدْعُونَا الْمُؤَلِّفُ إِلَى التَّفَكِيرِ لِحِظَةٍ وَاحِدَةٍ فِي مَبْدَأِ
 (الْعَدْوَى)، فَالتَّأَوُّبُ مِثْلًا هُوَ أَمْرٌ مُعِدٌّ عَلٰى نَحْوِ مُذْهَلٍ، فَحَتَّىٰ مَجْرَدُ
 سَمَاعِ الْكَلِمَةِ، أَوْ قِرَاءَتِهَا تُصَيِّنُنَا بِسُلُوكِ التَّأَوُّبِ، كَذَلِكَ الْأَشْخَاصُ
 الَّذِينَ شَاهَدُونَا أَوْ سَمِعُونَا نَشَاءً.. فَلَا بَدَّ أَنَّهُمْ قَدْ أُصِيبُوا بِذَاتِ
 السُّلُوكِ وَتَنَاءَبُوا أَيْضًا.

إِنَّ عَدْوَى التَّأَوُّبِ مَا زَالَتْ شَيْئًا مُحِيرًا وَغَامِضًا لِحَدِّ الْآنِ،
 وَتَقْتَصِرُ مَعْرِفَةُ الدَّرَاسَاتِ بِهَذَا الْأَمْرِ عَلٰى أَنَّ رُؤْيَةَ شَخْصٍ يَتَنَاءَبُ
 يَجْعَلُ الْعَيْنَ تَنْقُلُ الْمَنْظَرَ إِلَى مَرْكَزِ الرُّؤْيَةِ فِي الدِّمَاغِ، ثُمَّ تَنْتَقِلُ إِلَى
 مَرْكَزِ التَّأَوُّبِ الدِّمَاغِيِّ الَّذِي يَحْتُنُّ عَلٰى إِتِّبَاعِ ذَاتِ السُّلُوكِ الَّذِي
 شَاهَدْنَاهُ. وَيَتَطَابَقُ ذَلِكَ مَعَ الْقَوْلِ الْمَأْثُورِ الَّذِي يَقُولُ أَنَّ (الْمُتَنَاءِبُ
 الْجَيِّدُ.. يُصِيبُ سَبْعَةَ أَشْخَاصٍ آخَرِينَ بَعْدَ وَاهٍ).

وَبِالْحَدِيثِ عَنِ الْعَدْوَى فَالْإِتِّسَامُ وَالصُّحُكُ يُعَدَّانِ تَعْبِيرًا
 أَنْفَعَالِيًّا يَجْذِبُ انْتِبَاهَ أَشْبَاهِنَا مِنَ النَّاسِ، وَيَنْتَزِعُ مِنْهُمْ اسْتِجَابَةً

اجتماعية مماثلة كما يقول المفكر الراحل «د. زكريا إبراهيم» في كتابه «سيكولوجية الفكاهة والضحك»، حيث يرى العلماء أن القدرة على الشعور بالآخرين وتقمُّصهم عاطفياً إلى الحد الذي يسبب محاكاة سلوكهم المعدي قد يكون صفةً تطورية تخدم الجنس البشري جيداً.

التحدث عن العدوى بهذا الشكل.. يُشبه ما يُسمى بنظرية «تأثير الدومينو Domino effect»، وهي لعبةٌ مكوّنة من قطع حجارة مرصّوة جنباً إلى جنب، أو وراء بعضها البعض مباشرة، والتي ما إن نقوم بإسقاط الحجرة الأولى بإصبعنا حتى تتهاوى جميع القطع وتنتهار، وهذا ما حدث مثلاً أثناء «الثورات الملونة» ما بين 2003 و2007م. والتي كانت عبارة عن سلسلة من احتجاجات ومظاهرات سلمية اندلعت في عدّة مناطق مختلفة حملت كل منها أعلاماً وشعارات ذات لونٍ يميّزها.

حتى العديد من الحروب الكبيرة.. عادةً ما كان سببها تفاصيل صغيرة، ونذكر هنا «الحرب البسوس» كانت بين قبيلة تغلب بن وائل وأبني شيبان وأحلافهم والتي استمرت 40 عاماً بسبب أن «كليب بن أبي ربيعة» قتل ناقهً كانت ملكاً لجار البسوس التميمية. وقد يدعونا هذا أيضاً للحديث عن «محمد البوعزيزي» كشرارة للثورات العربية التي انطلقت من تونس وانتقلت إلى مصر واليمن ليبيا وسوريا كما يقول الكاتب «يحيى بن الوليد»، فهذا المواطن التونسي 29 عاماً، والذي أضرم النار في جسده، يوم الجمعة 17 ديسمبر 2010م «حيث

كان يعمل على عربة خضار كان أنتزاعها منه سبباً مباشراً لإشعال فتيل (الحريق العربي)، فقد أقدم «البوعزيزي» على (اختيار) لم يكن يدري مُخلفاته على خريطة العالم العربي ككل.

هذه الشرارة.. وهذا الاحتمال للتغير المفاجئ هو محور فكرة «نقطة التحول» كما يذكر «غلاذويل» ولهذا يكون من الصعب القبول به، ولكنه أصبح تعبيراً شائع الاستخدام للمرة الأولى في السبعينيات من القرن العشرين "لوصف هروب السكان البيض الذين يعيشون في المدن القديمة في الشرق الشمالي من الولايات المتحدة إلى الضواحي، فحين بلغ عدد الأمريكيين (الأفريقيين) الوافدين إلى منطقة معينة عند نقطة محددة مثلاً 20٪ منهم، لاحظ حينها علماء الاجتماع أن المجتمع سيشهد نقطة تحول أكبر: "فمعظم السكان (البيض) الباقين سيغادرون في المقابل فوراً" حتى أصبح عدد الذين تركوا المدن ليعيشوا في الضواحي.. يوازي حجم هجرة الريف إلى المدينة.

هذا الوصف يتطابق مع أهم النظريات التي توقفت عندها كثيراً عندما طرحها الكاتب «واين دبليو داير» كنظرية لكاتب آخر هو «كين كايز» في كتابه «القرود رقم مائة»، وهي نظرية تدور حول تأثير كل منا على الآخر داخل الفصيلة الواحدة، إذ قام علماء بدراسة مجموعة من القرود بالقرب من ساحل اليابان، وذلك عندما بدأ أحد القرود في غسل قطع البطاطس بطريقة معينة في المياه المالحة، وسرعان ما بدأت بقية القرود في تقليد هذا القرود فيما فعله، وعندما قام عدد

من القردة بالتصريف على هذا النحو.. بدأ نفس السلوك يظهر لدى مجموعة أخرى من القردة على مسافة مئات الأميال، على الرغم من أن المجموعتين ليس بينهما أي اتصال مادي مباشر.

إنَّ القرد رقم 100 يرمز لما يسميه العلماء بـ (الكتلة الحرجة) داخل النوع أو ما سمّاه «غلاذويل» بـ (نقطة التحول). حيث تقول هذه النظرية أنه بمجرد الوصول إلى رقم الكتلة الحرجة.. يبدأ نفس السلوك في الظهور لدى باقي الأعضاء الآخرين من نفس الفصيلة. ويبدو هذا حقيقياً بالنسبة لجميع الفصائل والأنواع أيضاً، فعندما تبدأ الكتلة الحرجة من أعضائها بالتصريف أو التفكير بطريقة معينة، يقوم باقي الأعضاء الآخرين في نفس النوع بالتصريف بنفس الطريقة. وهذا ما يُفسر ربّما اندلاع حرائق متتالية في مناطق مُختلفة في نفس الفترة، أو ظهور نوع مُحدد الجرائم في عدّة مدن.

وفي الحقيقة.. ليس جميع البشر قادرين على أن يكونوا بمثابة (عامل مُعدي).. يقلدّهم البقية ويتأثرون بهم ويتبعونهم، يُمكن فقط لنسبة قليلة من الأشخاص أن يكونوا تلك العوامل المعدية، ويُطلق عليهم الكاتب هنا (قانون الأقلية)، أي أولئك الاستثنائيون الذين يُنجزون أغلبية العمل، ويكونون من السهل ملاحظة وجودهم والكاريزما التي يتمتعون بها.

نحنُ عادةً ما نصادق الأشخاص الذين نُشبههم، والذين نُحبُّ القيام بأشياء مُشتركة معهم، بمعنى آخر.. نحنُ لا نسعى وراء الأصدقاء، بل نتصادق مع الأناص الذين يحتلون نفس المساحات

الصغيرة التي نحتلها في الحياة لیساعدوننا عليها. وقد حدث أن ساعدني شخصياً أحد أصدقاء العائلة الدكتور والشاعر «زاهر عبد الرحمن عثمان» للوصول لنقطة التحوّل الخاصة بي، والذي صادفته افتراضياً أيضاً في أحد المنتديات الإلكترونية للشعر والأدب. لقد كان يمتلك ميزة يضعب تعريفها، ميزة معدية فعلاً تبحث عن التراث، والإنسان، والصحيح من الوزن والتفعيله والشعر الحقيقي، وتبعث في ذات الوقت على الطاقة والإيجابية والقصائد.

كانت نفسه التي تعشق مساعدة الغير، ومهارته في الإقناع والمبادرة كفيلة بإقناعي بضرورة نشر نصوصي المبعثرة في جُنبات المنتديات، وقد تمّ جمعها بالفعل في كتاب ورقي صالح للنشر والتوزيع على أرض الواقع، ولكنه لم يكتف بذلك فقط، إنه الوحيد في تلك الفترة الذي آمن بوجودي واحتمال شاعريتي، وقد تحمّل فوق هذا الإيمان.. وزر دخولي إلى الساحة الأدبية، كما تحمّل أيضاً المسؤولية كاملة لحمايتي، متابعة خطواتي، تقويمى عند الخطأ، تشجيعي على النجاح، الوقوف ورائي وأمامي كلما احتاج الأمر لذلك.. ولولا هذا الرجل القدير.. لما كان ممكناً أبداً لوالدي أن يتخلّص من قلقه وخوفه من مكاني الجديد الذي اخترته في محيط وأمواج الوسط الأدبي.

يؤمن «غلاذويل» بأن دائرتنا الاجتماعية.. ليست في الواقع (دائرة)، بل إنها (هرم)، وفي أعلى الهرم شخص اسمه (س) مسئول عن الأغلبية المطلقة للصدقات التي تشكّل حياتنا، هؤلاء

الأشخاص الذين يشبهون (س) يقومون بمهمة ربطنا وتواصلنا بالعالم، هم الموصّلون الذي يملكون موهبة جمع العالم سوية. وهم القادرون أيضاً على استهلال الأوبئة والبدء بها، لأنهم يعرفون أشياء كثيرة نجهلها نحن البقية. وما يميزهم ليس مقدار المعلومات التي يعرفونها.. إنما كيفية نقلهم لتلك المعلومات، إنهم يريدون المساعدة، ليس لسبب سوى لأنهم يحبون تقديمها. ولقد كان هذا الـ (س) بالنسبة لي والذي تمثّل داخل علاقاتي الاجتماعية وربطني بالعالم هو «د. زاهر» حيثُ كان يقطنُ أعلى الهرم وأوّل الدائرة بالطبع.

قد نظنُّ أنّ تعابير وجوهنا هي انعكاسٌ لحالتنا الداخلية، فعندما نشعرُ بالسعادة نبسم، وبتسم معنا الناس الآخريين، وهذا ما يُسمّيه الكاتب بـ «العُدوى العاطفيّة Emotional contagion»، إنّما وحدهُ الشخص الفاتنُ يستطيعُ إصابة الأشخاص الآخريين الموجدوين بالغرّة بعواطفه.

أمّا عن العامل المُعدي نفسه، أو كيف يُمكن للرسالة أن تُحدث تأثيراً.. بحيثُ لا يُمكننا إخراجها من داخل عقولنا ومشاعرنا؟، ففيما يبدو أنّ الوصول إلى المُستهلك بواسطة (الرسالة) ليس الجزء الصعب في التسويق المباشر، لأنّ «الصعب حقاً.. هو جعل المُستهلكين يتوقّفون ويقرؤون الإعلان ويتذكّرونه، ومن ثمّ ينفذون ما يطلبه»، ولكي تكونُ الرسالة مُعديّة بشكل ناجح كالترّويج لـ (طعام، فيلم، إعلان، منتج...)، فإنّ ذلك يعتمد على

نوعيّة ودرجة (التصاقها) بنا، وهذا هو «عامل الالتصاق» الذي يُراهن عليه المؤلف.

فمعظمنا يُريدُ أن يتأكّد بأنّ الأشياء التي نقولها قد تمّ حفرها في ذاكرة الآخر، ولذلك اعتدنا على أن نُكرّر ما نقول، أو نرفعُ به أصواتنا، وهذا ما يفعله أولئك الذين يعملون في مجال التّسويق، إنهم يُؤمنون بمبدأ أنّه ”لا بد من مشاهدة الإعلان (6 مرات) على الأقل.. قبل أن يتذكّره النّاس“.

وهكذا إن استطعنا النّظر والتمعّن في رسائل الأوبئة التي نجحت في الانتشار، نجدُ أنّها التصقت بنا من خلال تفصيلا صغيرة، قد تكونُ تافهةً ظاهرياً، لكنّها ذات لمسةٍ مُختلفة ومميّزة، بحيثُ تكسب الرسالة نفسها معنى أعمق. ف”لم يكن يوماً التّدخين أمراً مثيراً إنّما المُدخّنون أنفُسهم هم المُثيرون“، ويصبحُ إذن.. من السّهل جداً على مجموعة صغيرة أن تكونُ قادرة على نشر التّدخين بين باقي الرّفاق.

كما أنّ هناك شيئاً هاماً مرتبطاً برسائل الأوبئة.. وهو طبيعة باعث الرسالة، تلك التي اشتهرت بسبب ربطها بأشخاص معيّنين قادرين على إجبارنا دون أن نشعُر على القيام بأمرٍ ما، كما يحدثُ مثلاً في الاستعانة بعدد من الممثلين المعروفين للترويج لشركة بيبسي أو كوكاكولا، وهذه الاستعانة الذكيّة هي ما يجعل من المُنتج.. أكثر (التصاقاً) وتأثيراً وإتباعاً.

من جهة أخرى نواجه مُعضلةً من نوع ما، أقصدُ داخل «عامل الالتصاق» هذا، حيثُ أن الكثير من الأشياء التي نتذكرها مُخزّنة في الواقع خارج أدمغتنا. مُعظمتنا لا يتذكّر مثلاً أرقام الهواتف التي يحتاج إليها، لكننا نتذكّر مَوقِعها ومكانها وفي أيّ جهة هي مكتوبة في دفتر الأرقام. وهذا تماماً ما يحصلُ عندما يَرْتَبط الأشخاص ببعضهم البعض ويُصبحوا شركاء، إنهم يقومون بإنشاء نظامٍ ضمّني لذاكرةٍ مُشتركة فيما بينهم يسمّى بـ «نظام الذاكرة التّعامليّة»، وهو من أكثر مفاهيم «غلاذويل» الإنسانيّة التي لمستني وتأثرتُ بها رُغم المفاهيم التجاريّة والتسويقية التي تضحجُ بها صفحات الكتاب.

حيثُ يَعتبرُ المؤلّف هذا النظام الأفضل لتذكّر أنواع معينة من الأشياء التي التّصقّت بشركائنا لأنّها من اختصاصهم، وبما أن طاقاتنا محدودة.. فنحنُ نركّز على ما نُجيدُه فقط، مُعتمدين بالتأكيد على شركائنا في تلك الأشياء التي يُجيدونها، وحين نحتاجُ إلى تلك المعلومات.. فنحنُ نقومُ باستدعائها منهم شخصياً بشكلٍ مُباشر أو غير مُباشر.

إنّها جزءٌ ممّا تعنيه «الحميميّة» بالفعل، ولهذا فإنّ خسارة هذا النوع من الذاكرة المُشتركة هي ما تُساعد على جعل قرار كـ (الطلاق) أمرٌ مؤلم جداً، نتيجة فضل أو قطع رابط الالتصاق، وتبدّد نظام الذاكرة التي نخزنها عند الشريك.

الأمر الجيّد هنا.. هو إمكانية عكس الوباء لصالحنا من أجل تحقيق شيء من السعادة، حيثُ يُمكن عكسه وتحويله من خلال

تغيير بعض التفاصيل الصغيرة في البيئة المباشرة التي نتحرك بها. وليس علينا أبداً اتخاذ الخطوات الكبيرة والبطولية. ولكن المشكلة كما يلخصها المؤلف هي أننا نزدري هذا النوع من الحلول البسيطة ولا نستوعبها، ربّما لأن هناك شيئاً بداخلنا يجعلنا نميل إلى الحلول الشاملة والواسعة. ولكننا في بعض الأحيان نحتاج إلى (اختصار) ملائم، إلى طريقة نحصل فيها على الكثير من القليل.

ولنقرب هذا المعنى أكثر، يُمكنني أن أذكر عدداً من الأمثلة في مُحيطنا العربي، وهو ما حدث في برامج (اكتشاف المواهب) التي طرأت على عالمنا التلفزيوني ولاقت إقبالا كبيرا وواسعا في وقت قصير، سواء من قبل المشاركين أو المشاهدين، حيثُ تمكنت هذه النوعية من البرامج من الانتشار بعدة أسماء بهدف اكتشاف العديد من المواهب الحقيقية، والتي كانت تنتظر منذ أمدٍ طويل لتنال فرصتها نحو النجومية والشهرة بدءاً من برنامج (أستديو الفن، ثم سُوبر ستار وستار أكاديمي، إلى برامج نجم الخليج، صوت السَّهاري، ألْبوم نُجوم العرب، آرب أيدول، آروب جوت تالينت، إكس فاكتر، أخلى صوت ذا فويس).

ولا ننسى أيضاً ظاهرة انتشار برامج (اليوتيوب)، تلك المؤضة الساخرة من الواقع والوباء الإيجابي الذكي، والذي قام بنشره عدد من الشباب بطرقٍ متعددة وإمكاناتٍ محدود مثل برنامج (أباليسو،

ريساكيل، إيش اللي، على الطائر، قنّاة صاحي، التّاسعة إلا ربع، الفئة الفالّة، مسامير، لقيّمات، لا يكثر... وغيره)، وقد حقّقوا من خلالها رواجاً مذهلاً نأفس الكثير من القنّوات الفضائيّة، وحقّقت بعض هذه البرامج إعداد مُشاهدة عالية جداً ممّا يُشير إلى اتّجاه المُشاهد في لحظةٍ ما إلى الإعلام الجديد، وأنصرافه عن الإعلام التقليدي.

كما يُمكن أن نذكر مثلاً آخر قد يكوّن أكثر وضوحاً لانتشار ظاهرة أدبيّة ما، فجميعنا يذكر طبعاً ما أحدثته رواية «بنات الرّياض» التي صدرت عام 2005م للروائيّة السّعودية «رجاء الصّانع» من ضجّة عالمياً وعربياً وترجمت إلى عدة لغات أجنبيّة، بحيثُ شكّلت ظاهرة حقيقيّة وانطلاقة لموجة من الرّوايات الجريئة والبسيطة لفتيات سّعوديّات. لدرجة أنّ نصف الرّوايات السّعوديّة تقريباً والتي صدرت في العام الذي يلي صدور «بنات الرّياض» كتبها نساء من السّعوديّة لم يكنّ معروفات قبلاً. وهذه ظاهرة كما وصفها النّقاد لم يسبق لها مثيل في تاريخ أدب الجزيرة العربيّة حيثُ صدرت في هذا العام 41 رواية سّعوديّة، منها 20 رواية بأقلام نسائيّة.

في عام 2006م وفي جريدة النهار اللّبنانية استشهدتُ مرّة بما كتبه الناقد والرّوائي «ماهر شرف الدّين» في مقالة قامت بقياس ورصد أهميّة تلك اللّحظة الأدبية في المُجتمع السّعودي حين كتب: «الصّحيح، أن (قضيّة) الأسماء المستعارة باتت قضيّة سّعوديّة بالفعل، وخصوصاً مع انفجار عالم النّشر الإلكتروني: لم تستطع

الصحافة الورقية أن تلعب الدور الذي لعبته الصحافة الإلكترونية في تظهير كاتبات سعوديات، والتعريف بهن. وذلك بسبب أن الرقابة أقل سطوة مع فضاء الإنترنت. إضافة إلى أن عمل السعوديات، بسبب الرقابة الاجتماعية، أكثر سهولة مع نوع كهذا من الصحافة». كما يقول في موقع آخر: «تحتاج الكاتبة السعودية إلى من يأخذ بيدها في طريقها المحفوف بالذكور، وتحتاج من يلتقط لها صورة، ومن ينشر لها تلك الصورة، و... يُصَفَّق. كذلك، أن تكوني كاتبة في بلاد محافظة، يعني أن تكوني انتحارية. هو زمن (استهاديات القمع والإنترنت إذاً). زمن قتل المسكوت عنه، زمن الصورة إلى جانب المقال، والوجه إلى جانب اليد. وما علينا سوى أن نعد أنفسنا بالمزيد من أقلام الكاتبات السعوديات، و... صورهن».

وكما نرى، فإننا أحياناً قد نمتلك الموهبة والقُدرة على الإبداع ولكننا لا نملك الحق، أو القُدرة على مُغادرة المنزل كلِّما أردنا ذلك، لذا كفتيات كُنَّا نرغبُ في الكِتابة والشُّعر والرواية اخترنا في تلك الفترة المُشاركة في المواقع والمُنتديات الأدبية الإلكترونية، وامتلاك صفحة شخصية مجانية عن طريق حجز مساحة في هذا الفضاء يُمكنها أن تُساعدنا على تحقيق بعضٍ من تلك الطُّموحات التي نخترزها بداخلنا.

لا أذكر أوَّل من وصلَ فينا إلى «نقطة التحوُّل» كجيل كان من أدبيات أو روائيات أو شاعرات الإنترنت، ولا أذكر من الذي قفز أولاً من الإنترنت إلى أرض الواقع، لكنني أذكر بأننا تعاقبنا

على النَّشرِ واحداً.. تلو الأخرى. أتحدّثُ هنا طبعاً عن نماذجٍ إيجابيةٍ قدّمت ذاتها أيضاً بطريقةٍ إيجابيةٍ أمثال (بُثينة العيسى، هديل الحضيف، عائشة القصير، عائشة الحشر، أسماء الزهراني.. وأخريات).

أظنني أتيتُ في لحظةٍ عصريّةٍ وإلكترونيّةٍ فرضت نفسها بالتّحليق بعيداً عن الأرض، وفي وقتٍ ربّما كانت فيه لحظة التّغيير والانطلاق مُناسبة، ولهذا أجبَلُ كثيراً من التّطرُق إلى العَقبات التي اعتَرَضتني رُغم صعوبتها، وذلك لأنّ من سبقونا من المُبدعات كان لديهنّ تاريخٌ إبداعِي، جَمالي، فاتن، عريضٌ وملئٌ بصعوباتٍ أفسَى ممّا عانيناه، لقد مهَّدن لنا الطّريق، حفرن أكثر ممّا في صخرة التّقاليد، وأجبرن المُجمَع على النّظر والاستماع إلينا. أمّا أنا فأظنني كنتُ جبانةً أكثر من اللازم، لقد فضّلتُ العِراكَ من وراء جهاز الكمبيوتر، وخلف الشّاشة، ونقلتُ المعركة نحو فضاء افتراضي كونه ليس مؤلماً كما ينبغي للألم أن يكون.

منذُ «نقطة التّحوّل» هذه التي مررتُ بها في حياتي.. صدر لي (ميلاد بين قوسين) ثمّ (أيقونات) الذي ترجم للغة الإنجليزيّة.. ومؤخراً أصدرتُ (ولا..أشهى)، وبدأتُ رحلة الضّوء واللّوحات الفوتوتشكيلية والتصوير الفوتوغرافي، وها أنا ذا أكتبُ لكم كتابي هذا جنباً إلى جنب مع محاولاتي المُستميّة في أن أكون في قلب الحياة.. وليس خارجها.

العالم مثلما تُريده.. بالتّأكيد لا يتطابقُ مع حدسنا، والذين

نَجُحُوا فِي إِنْشَاءِ (أَوْبِيَّةِ اجْتِمَاعِيَّة) لَا يُنْجِزُونَ فَقَطْ مَا يَعْتَبِرُونَهُ شَيْئاً صَحِيحاً، إِنَّهُمْ يَخْتَبِرُونَ حَدْسَهُمْ عَمْداً، وَالْحَدْسُ «Intuition»، بِحَسَبِ الْعَالَمِ الرُّوحَانِيِّ «أَوْشُو OSHO»، هُوَ الْقُدْرَةُ الَّتِي نَخْتَبِرُ فِيهَا الْمَشَاعِرَ وَالرُّوحَ الْحَقِيقِيَّةَ، لِذَا فَهُوَ قَفْزَةٌ مِنْ نُقْطَةٍ إِلَى أُخْرَى، مِنْ دُونِ صِلَةٍ رُبَطَ بَيْنَهُمَا، وَيَحْضُلُ لَنَا مِنْ غَيْرِ أَيِّ سَبَبٍ أَوْ مَصْدَرٍ، فَهُوَ قَفْزَةٌ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ.. وَلِهَذَا السَّبَبُ يُنْكَرُهُ الْعَقْلُ لِعَدَمِ قُدْرَتِهِ عَلَى التَّقَاطِهِ.

إِنَّ ارْتِفَاعَ مَعْدَلِ الْأَسْمَاءِ الْمُسْتِعَارَةِ السُّعُودِيَّةِ وَالْأَدْبِيَّةِ وَالْأَنْثَوِيَّةِ بِالذَّاتِ مَا بَيْنَ عَامِ 2000م - 2009م تَقْرِيْباً، وَارْتِفَاعَ مَعْدَلِ النُّشْرِ الْإِلِكْتْرُونِيِّ ثُمَّ الْوَرَقِيِّ لِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ.. يُمَكِّنُ أَنْ أَعْتَبَرَهَا أَمْثَلَةً وَاضِحَةً عَنِ نَمَطِ السُّلُوكِ الْمَعْدِيِّ، وَمَا حَدَثَ هُوَ أَنْ عَدَدًا صَغِيرًا مِنَ الْأَشْخَاصِ بَدَأَ يَتَصَرَّفُ بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ عَمَّا تَمَّ الْإِعْتِيَادُ عَلَيْهِ، وَانْتَقَلَ هَذَا السُّلُوكُ الْإِيجَابِيُّ إِلَى مُبْدِعَاتٍ أُخْرَى، وَهَكَذَا حَدَثَ التَّغْيِيرُ بِسُرْعَةٍ وَلَمْ يَتَقَدَّمْ ببطء.

إِذَنْ.. أَوَّلًا الْعُدُوى، وَثَانِيًا حَقِيقَةُ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الصَّغِيرَةَ تُحْدِثُ تَأْثِيرَاتٍ كَبِيرَةً، وَأَخِيرًا التَّغْيِيرَ لَا يَحْضُلُ تَدْرِيْجِيًّا وَإِنَّمَا فِي لِحْظَةٍ حَاسِمَةٍ، هِيَ الْمَبَادِي الثَّلَاثَةُ نَفْسَهَا الَّتِي تُحَدِّدُ كَيْفِيَّةَ انْتِقَالِ دَاءِ الْحُصْبَةِ فِي صَفِّ الْمَدْرَسَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ كَمَا يَقُولُ الْمُؤَلِّفُ، أَوْ كَيْفِيَّةَ حُصُولِ (الْأَنْفَلُونِزَا) فِي كُلِّ شِتَاءٍ. بَيْنَمَا تَعْتَبِرُ الْخَاصِيَّةُ الثَّلَاثَةُ هِيَ الْأَهْمُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، أَيَّ إِمْكَانِيَّةِ نَشْوءِ الْأَوْبِيَّةِ أَوْ اخْتِفَائِهَا فِي لِحْظَةٍ حَاسِمَةٍ، لِأَنَّهَا الْمَبْدَأُ الَّذِي يُعْطِي لِلْخَاصِيَّتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ مَعْنَى أَكْبَرَ،

ويعطي أفضل تفسيرٍ لسبب حدوث التغيُّر العَصري بتلك الطَّريقة. قفزةٌ صغيرةٌ خارجَ الإطارِ المُتعارفِ عليه.. يُمكن أن تُغيَّر حياتنا، أن تجعلنا خارجَ الصَّورة بدلاً أن نكون مُحتَجِّزين داخلِ برؤازها، ورغم أننا تربَّينا جميعاً على أن نكون أشخاص عاديين وأن نبحتَ عن نُقطةٍ وسطى، لأننا نظنُّ أنَّها الأعدل والأكثر مساواة.. لكننا إن تألمنا أكثر من اللازم، إن توقَّفنا في مكاننا لفترةٍ طويلة، إن شعرنا بالضَّجر مما نقوم به يومياً.. فربَّما تُكونُ هذه إحدى الإشارات القويَّة أو المُتبقية للقيام بقفزةٍ صغيرة.. هي كلُّ ما نحتاجه كـ «نُقطةٍ للتحوُّل» تمنحنا ولاءً إيجابياً.. قادراً على العدوى في لحظةٍ حاسمة.

أبدأ..
لا حبَّ حيثُ الأذى

أبدأ..

لا حبّ حيثُ الأذى

دُونَ توقّفٍ.. يسير في نُزهته الصباحيّة، وحيداً ودونَما التّفاتِ إلى وُجُورَةِ الطّريقِ، وأن لا يَكُونَ معه أحدٌ ليتحدّثَ إليه، فهذا يَعْنِي أَنَّ لا كَدْرَ سَيُعَكِّرُ صَفْوَهُ أو يَشَلُّ سَعَادَتَهُ بذاتِهِ، فذهنه خَالٍ حَتَّى من الأفكارِ والخَوَاطِرِ، إِنَّه غريبُ الأطوارِ ومُتفَرِّدٌ، حَتَّى عِنْدَمَا يُحاول أن يُفكِّرَ في شيءٍ ما.. لا يُمكن لعقله أن يُطَاوِعَهُ على أن يَأْتِيَ بِأَيِّ فِكْرَةٍ جَدِيدَةٍ كَانَتْ.. أو قَدِيمَةٍ.

نحنُ نَظُنُّ أَنَّ عِزْلَةَ رَجُلٍ يَسِيرُ وَيَتَمَشَّى وَيَتَأَمَّلُ وَحَدَهُ فِي الغَابَةِ تنطوي على كُلِّ شقاءِ الحَيَاةِ، أَمَا هو فلم يَكُنْ أَبَداً وَحِيداً، إِنَّه فَقَطُ بَعِيدٌ وَهَادئٌ وَلِهَذَا فهو سَعِيدٌ، لِأَنَّ السَّعَادَةَ تَتَعَلَّقُ لَدَيْهِ أَكْثَرَ بِحَالَةٍ مِنَ الاسْتِقْرَارِ وَالصَّفَاءِ الدَّاخِلِيِّ.

وهذا ما يشعر به ويكتبه «كريشنا مورتى Jiddu Krishnamurti»، في يومياته «تأملاتٍ في الحَيَاةِ» التي قام بترجمتها «مصطفى الزين» والذي جمع مجموعة مقالاتٍ يومية كتبها «كريشنا» خلال جولاته المتعدّدة مع نفسه ومع الأمكنة، بحيثُ تضمّنت مُعْظَمَ نظرياته الفلسفية التي تميّز حسب تقديم المترجم «بالتّحليل العميق لمشاكل الفكر وتناقضاته، وترتكز بالدرجة الأولى على التأمّل في

الذات وفي الطبيعة، وكثيراً ما تختلط بالسياسة والرومانسية.“
 حيث تتقاطع هذه الفلسفة وتتداخل مع بعض مفاهيم الصوفية،
 البوذية، الطاوية، والإنسانية الجديدة، وتدور معهم حول فكرة أن
 الحياة في أساسها معاناة متواصلة منذ لحظات الولادة الأولى
 وحتى الممات، وأن الانسياق وراء الشهوات، والرغبة في تلبيتها
 هي أساس هذه المعاناة، كذلك فإن الجهل والتعلق بالأشياء المادية
 يمكن التغلب والقضاء عليهما، ولهذا فإن هذه الفلسفة غالباً ما
 تعارض حد التصادم مع الفلسفات المادية.

في الهند ولد «كريشنا» بينما تبنته سيّدة بريطانية تدعى «آني
 بيسانت Annie Besant»، وبعد إعلان استقلال الهند عادت به إلى
 بريطانيا حيث نشأ وتأثر بثقافتها، وعندما أصبح يافعاً.. عاد إلى
 موطنه الأصلي حتى توفي بمرض السرطان عام 1986م. وطوال
 حياته التي امتدت ما يقارب القرن من الزمان، كان يشعر بقرب
 المسافة المذهل بينه وبين الطبيعة دون أن يبذل أي جهد لتقصير
 هذه المسافة، كان ذلك القرب عفويّاً على ما يبدو، وبعيداً عن
 التقنية والصناعة التي تقوم على قهر الطبيعة واستهلاك مواردها،
 كذلك لم يفصل بينه وبين الكائنات أي حاجز مهماً كان ضئيلاً،
 لعلّ هذا هو السبب في إنّه لم يكن يشعر أبداً بأيّ ضيقٍ أو أذى
 قد يوجّه له الآخرين، كما أنّ مديحهم.. لم يكن ليؤثر فيه أيضاً.
 هذه «اليوميات» تربط السعادة بذلك الإحساس الذي ما إن
 يزول حتى نرغب في أن نصادفه من جديد، ولكي نشعر به.. علينا

القيام بتهدئة عقولنا وتحريرها من التشبث والأفكار والطمع والشك والخوف والقلق، والطموحات التي تجعلنا نأمل أن ما نزرعُ به سيُسعرنا بسعادة أكبر ممَّا نحنُ عليه الآن، وإن كان.. على حساب الإنسان، الطبيعة، الأرض، والمخلوقات الأخرى.

الرؤية «الكريشنيّة» مهمّا كُنَّا نعتقد بأنّها غير واقعيّة في عصرنا الحالي، إلا أنّها أضافت لي ملمحاً جمالياً، فطرياً وإنسانياً، خاصّة أنّها تعتمدُ على رحلة الحلم والانسحاب من العالم المادي والتكنولوجيا المزعج والمسيطر على معظم تفاصيل حياتنا، لقد حفزتني حقاً على التفكير والتأمل طويلاً في علاقة الإنسان بالطبيعة وبقية الأحياء الأخرى التي لها حقّ الحياة مثلنا، حتّى تلك الزواحف التي أمقتها وأتقرّز منها، وإن كنتُ لم أستطع أن أتخلّص بعد من الرهاب الحقيقي تجاهها.

من الملاحظ أنّ نظرياتٍ روحيّة وفكريّة عديدة تدعو إلى التناغم بين الإنسان والطبيعة، منها الكونفوشيّة والطاوية، وكذلك البوذية التي تعتقد بأنّ كل الحيوانات مُساوية ولها نفس حقوق الحياة. وعليه فإنّ إطلاق العنان لنوازع الإنسان الأصليّة وعرّائه وعواطفه سيُفقد بكلّ تأكيد إلى العنف والفوضى، وسيُنحدر بالإنسان إلى النزعة القتاليّة من أجل البقاء، أو من أجل تحقيق السعادة التي يظنُّ أنّها من حقه وحده فقط.

ومن خلال مجموعة الصُور الحيّة والمناظر الروحيّة الخلابة التي تنغزل بها اليوميات.. يُمكنني القول بأنّ الفلسفة «الإيكولوجيّة»

بَدَتْ الأَكْثَرُ وَضُوحاً فِي تَحَرُّكَاتِ «كْرِيشِنَا»، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ إِحْتِرَامِ الطَّبِيعَةِ، تَأْمُلُهَا، وَمَعْرِفَتِهَا، وَالتَّسَامُحِ مَعَ طِبَاعِهَا السَّلْبِيَّةِ وَالْمُحَايِدَةِ وَالمُتَسَلِّطَةِ فِي ذَاتِ الوَقْتِ، وَذَلِكَ بِاعْتِبَارِ أَنَّنَا بَشَرٌ وَأَنَّنا مَجْرَدُ جِزْءٍ صَغِيرٍ مِنْ عَائِلَةٍ عَظِيمَةٍ وَضَخْمَةٍ وَهَائِلَةٍ تَضُمُّ كُلَّ الكَائِنَاتِ العَدِيدَةِ الَّتِي تُشَارِكُنَا الحَيَاةَ عَلَى هَذَا الكَوْكَبِ.

فِي العَصْرِ الحَدِيثِ الَّذِي اعْتَدْنَا فِيهِ عَلَى التَّمَدُّدِ وَالاِسْتِهْلَاكِ وَالإِهْدَارِ، نَقُومُ بِاعْتِرَافِ ضِمْنِي يَدِينُ الكَائِنِ الإِنْسَانِي إِدَانَةً وَاضِحَةً عَلَى التَّدْمِيرِ الطَّائِشِ الَّذِي يُمَارِسُهُ وَيُصِيبُ الطَّبِيعَةَ وَمَا آلتَ إِلَيْهِ. وَبَلِغَةً حَدِيثَةً.. وَحَسَبَ النَّاقدِ السُّعُودِي «مُحَمَّدَ العَبَّاسَ» فَإِنَّ ذَلِكَ التَّوَحُّشَ ضِدَّ الطَّبِيعَةِ هُوَ مَا يُسَمِّيهِ «مَائِكِلَ تَسِيمِر» بِـ «الفَاشِيَّةِ الإِيكُولُوجِيَّةِ» الَّتِي يُمَارِسُهَا الإِنْسَانُ بِاسْمِ الحَضَارَةِ وَالتَّكْنُولُوجِيَا. مِمَّا يَجْعَلُنَا نَبْحُثُ عَنِ الضَّمِيرِ البِيئِي الَّذِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَكَوَّنَ قَبْلَ أَنْ نَشْعُرَ حَقاً بِالتَّائِبِ، أَوْ كَمَا يَقُولُ «حَسِينِ شَاوِيش» فِي إِحْدَى مَقَالَاتِهِ: «هَلْ يُمَكِّنُ خَلْقُ شَيْءٍ اسْمُهُ الضَّمِيرِ البِيئِي، حَيْثُ يَتَوَجَّعُ المَرءُ لِكَسْرِ غُصْنٍ كَمَا لَوْ أَنَّهُ دَاسٌ قَدَمِ طِفْلِ نَائِمٍ؟؟».

لَا يَتَعَامَلُ «كْرِيشِنَا» مَعَ الطَّبِيعَةِ كَمَسْرُوحٍ لِلتَّنَزُّهِ وَالمُشَاهَدَةِ، بَلْ مَنْظُومَةٌ عِلَاقَاتٍ قَدْ يَتِمُّ القَضَاءُ عَلَيْهَا وَتَدْمِيرُهَا إِذَا مَا تَمَادَى البَشَرُ فِي التَّعَدِّيِّ عَلَيْهَا. إِنَّ الطَّبِيعَةَ اعْتَادَتْ عَلَى تَطْهِيرِ ذَاتِهَا مِنْ كُلِّ المُخْلَفَاتِ وَالمُتَغَيَّرَاتِ لِتُهْدِينَا مَكَاناً آمناً قَادِراً عَلَى اسْتِيعَابِ مُقَوِّمَاتِ الحَيَاةِ السَّعِيدَةِ، لَقَدْ خَلَقَهَا اللهُ بِهَذَا التَّوَازَنِ العَبْقَرِي، بَيْنَمَا اخْتَلَّ تَوَازُنُهَا نَتِيجَةَ العُنْفِ الَّذِي نُمَارِسُهُ عَلَيْهَا بِقَصْدٍ.. أَوْ دُونَ

قصد، ونتيجة استعمال الأسلحة البيولوجية والكيميائية والجراثومية، والتلويح، والنفايات الصناعية والتكنولوجية، وكذلك الغازات الناجمة عن المحروقات، والمبيدات.... الخ.

فعلاً.. لماذا ننظر بأنانية وباحتقار وعدم اكتراث لما يُصيب الأرض؟؟، لماذا نبدو وكأننا نُعادي الطبيعة ونحاربها باللامبالاة، وبكمية البلاستيك والأسلاك والعوادم والمصانع والشواحن والهواتف وغيرها من المنتجات التي نعتبرها وكأنها البديل، أقصد البديل عن بيئة حقيقية من المفترض أن نعش ونتعاش فيها؟، ما هو النفع الذي نَجنيه من وراء إتلاف ممارسه الإنسان باسم التقنية مرّة، وباسم التكنولوجيا الحديثة مرّات؟؟؟!، وما الميزة إنْ انعدمت الكائنات الأخرى... وبِقينا هنا وحدنا؟!.. مكتبة سر من قرأ ما أعرفه تماماً أن العائد التكنولوجي الذي نتحجج أو نتبجح به.. ربّما يكون ضاراً بنا، وقد يؤدي إلى العدوانية، الوحدة، الجشع، والإفراط في العمل إلى حدّ الإنهاك، والأهم أنّه قد يكون هادماً لعلاقاتنا العائلية وصدقاتنا وعلى صحتنا كذلك، خاصة على المدى الطويل.؟!.. ورُغم أنّي أعرف كلّ هذا إلا أنّي أعاني مثلكم من سَطوة التقنية، وفشل محاولاتٍ عديده في ضبط استخدامها، والتخلّص الجزئي منها.

ولهذا.. كان «كريشنا» بفطرته صديقاً لروائح طيبة تعبق بالأجواء، لشمسٍ تظهر ليستعيد كلّ شيء على الأرض لمعانه، لأطفالٍ يُنشدون الأغاني مُجتازين أشجار البلح والبلوط، كان صديقاً

لقمم شاهقة، ببغاواتِ خضراءِ وحمراءِ ومُنسجمة، لحقول، فلأحين،
أزهار، أمطار، دِبة، أرانب، وسَناجب، كان صَدِيقاً لَمَزارع البُرثقال،
للأنهار، وللضفاف، ولكُل هذه الأشياء التي أَحَبَّها والتي ما زالت
تُكافح من أجل وجودها.

ففي هذا (المكان المُتخلف) كما يقول.. لا أحد يهتمُّ بهذا
النوع من المخلوقات. غير أنَّ تحمُّل مسؤولية عدم الاهتمام
للمُحيط الاجتماعي والثقافة والأهل والناس من حولنا لا يُفيدنا
شيئاً، لأننا اعتدنا دائماً على أن نُحمِّل الغير وزر هذا الانحلال.
وبهذا فإنَّ من الأسباب الرئيسة للشُّعور بالسَّعادة يكمنُ في
سلوكنا الأخلاقي وأنسجامنا مع الطَّبيعة والتأمُّل الذهني الصَّافي،
حيثُ يُصبح دَفءُ العقل وسعادته واضِحَةً للعيان. وهذا يعني
الامتناعُ عن التَّصرُّف أو التحدُّث أو التَّفكير تحت تأثير الأحاسيس
السلبية كالطموح والتعلق، والطَّمع والغضب والسُّخرية، لأنَّ كل
هذه الأحاسيس لها الكثير من الآثار المُدمِّرة على صَحِّبها قبل
الآخرين.

وهنا تماماً تكمنُ الالتباسات التي تنطوي عليها «الكريشنية»،
إنَّها لم تَسْتَطع أن تتلاءم مع التَّحوُّلات الجديدة في المُجتمعات،
ولم تَسْتَطع أن تجد التقدُّم التكنولوجي مناخاً صالحاً لحياة ذات
معنى، لذلك لجأ المؤلفُ إلى التأمُّل فراراً من أزمته.

وبأسَى كبير وبمَساحة أكبر من يومياته يتألَّم «كريشنا» لكوننا
مُرغَمين على العيش في هذا العالم المُتوحِّش المليء بالتناقض.

فقد نذرفُ دمعةً إن رأينا يداً تقطع شجرة أو تذبح حيواناً، ولكن تلك الأيدي في ذات الوقت تقوم بهدم الكون من أجل لذاتنا، ودُموع الإنسانية كلها لم تتمكن من وضع حدٍ لشهوة القتل، فكلما زاد الإنسان تقدماً كلما زادت قساوته.

والغريب.. أن يوميات المؤلف تعتبر أن القسوة لا تكمن فقط في المجازر، أو القصف العشوائي، أو حمامات الدم فقط، بل أن طبيعتها تعني أعمق من ذلك بكثير، فمحاولة التقليد مثلاً، أو الطموح، هي علامات أخرى للقسوة، كما أن محاولة السيطرة على هذه القسوة.. هي أيضاً شكلٌ من أشكالها.

القاعدة هنا هي أن «المسيطر.. والمسيطر عليه هما شيء واحد». لذا لا غرابة إن سمعنا هذا الفيلسوف يتحدث عن (الألم) مراراً في جنبات يومياته، وذلك لأنه يعتبر أن الألم مقيمٌ دائماً في دواخلنا، ومهما حاولنا نسيانه.. سيظلُّ يتذكرنا، أما الهروب منه إلى تعزية النفس بالدين أو بسواه.. أمرٌ لا جدوى منه، حتى لو حصلنا على السلطة، أو وجدنا لأنفسنا مكانة اجتماعية لائقة، أو انغمسنا في الملذات.. لن ننجو من لحاق الألم بنا، حتى أنه يعتقد بأن (الحب).. سوف يُنهينا كذلك إلى الألم. لأنَّ الحب في نظره ليس إلاً نتاجاً لأفكارنا، وأيَّ تحركٍ فكري يُشعل العقل ويُشغله.. قد يزيد من حدة الشقاء.

ولهذا لا يوجد أستاذ خاصٍ بعينه نتعلم منه كما يقول «كريشنا» لأننا نتعلمون من ورقة شجر ميتة، من طائر يُحلق، من رائحة،

من دُمعة، من الأغنياء والفقراء، من الباكين، من ابتسامه امرأة، من عَطْرَسَة رجل أو حُضنه.. إِنَّا نَتَعَلَّم من كل شيء حَتَّى من ذواتنا، «ومن ثَمَّ ليس هناك مُرشد، ولا فيلسوف، ولا مُعَلِّمٌ روحي. الحياة نَفْسَهَا تَعْدُو مُعَلِّمكم».

هذا بالإضافة إلى أَنَّ البَشَرَ يَقُومُونَ بِإِنْفَاقِ مَبَالِغِ طَائِلَةٍ، وَيُحَارِبُونَ وَيُنَاضِلُونَ من أَجْلِ (تعليم) أولادهم الذين يتعلَّقون بهم تعلقاً عميقاً على مَرِّ السِّنِينَ، فيقول: هل الحُب هو التعلق؟، هل هو دموعٌ، شقاء، فراق، وخُدة، حُزن، أم شفقة على الذات؟ إذا كُنَّا نَحِبُّ أولادنا حقاً فسوف نَجْتَهِد حَتَّى لا يَمُوت أطفال الآخريين في الحُرُوب التي نَصْنَعها، والتي نُشَارِكُ بها بِشَكْلٍ مُبَاشِرٍ.. أو غير مُبَاشِر.

هكذا يُعارض «كريشنا» مبدأ التَّفَكِيرِ حَتَّى في الحُب والتعلق، وَيَدْعُو إلى تَحْرِيرِ العَقْلِ من الأَفْكَارِ التي تَتَجَهَّم، فلفظة «عِلْم» تعني بالنسبة له «معرفة»، والإنسان يَأْمَلُ أن يُحوِّله العِلْمُ إلى شخصٍ سليم وسعيد، ولكن المعرفة ليست عاطفة.. لأنها لا تجرُّ سوى الأذى، الفوضى، الحُرُوب، اختراع آلات الموت.

ومن هُنَا تَبْدَأُ (الكريشنيَّة).. وبشيء من التَعَقِيدِ بتوجيهِ أنظارنا إلى الأرض ولكن من خِلال مَكَانٍ مُرتَفِعٍ، لثُقْنَعنا بأنَّ الأرض كانت دائماً محكومة من طُغَاة يَمْنَعُونَ الحُرِّيَّةَ عن كل إنسان، ومن مُفَكِّرين يَصْنَعُونَ له أَفْكَارَهُ، ومن رجال دينٍ يَسْتَعْبِدُونَهُ مُنذُ قرون عِدَّة، ومن رجال سِياسَة نَشَرُوا بين النَّاسِ التَّفَرِّقَةَ بوعودهم الدائمة.

وبالنسبة إلى المؤلف فإن كل عقيدة، كل صيغة، كل إيديولوجيا.. هي نتيجَة فكر قائم على تجزئة الأشياء (يسار، يمين، وسط)، وكل عرق.. يُحرّض ضدَّ عرقٍ آخر أو كل دين.. هو ضدَّ دينٍ آخر، وكل جماعة تتحدّثُ لغةً مُعيّنة.. تعني أنها ضدَّ جماعةٍ أخرى. وهذه التّجزئة تقودُ حتماً إلى انسحاق اليمين أو اليسار، أو قيام النظام الطغياني في الدّول، لهذا ربّما تُعتبر «اليوميّات» أنّ رجال الدين يتدخّلون بيننا وبين ما نعتقد أنّه الحقيقة، «وكأنهم يملكون مفاتيح الفردوس»، الأمر الذي أصبح فيه الدّين باعْتقادهم مُجرّد وساوس، عبادة، صُور، طُقوس. ولكن الحقيقة التي تُنشدها الكريستية لا تُوجد في المعابد، أو الكنائس، أو المساجد مهما كان بناؤها فخماً وعملاقاً. «لأنّ جمال الحقيقة شيء.. وجمال الحجارة شيء آخر».

وكما نرى فإنّ العالم أجمع يُعاني من جماعات دينية مُتطرّفة تؤمن بذاتها فقط، وتُلغي الجماعات الأخرى، ولذلك فهي تنوي الهيمنة على باقي البشر بحُجّة أنّها الأقدَر والأولى، وأحياناً تُعطي لنفسها الحق في تسمياتٍ مقدّسة تفرضها علينا مثل (القسيس - الرّاهب - الدّاعية - السيّد - الشّيخ - الملائ - الحّاج - آية الله العظمي والصّغرى....). فبحُجّة إنقاذ الحَضارة وتحت عباءة الدّين.. يتمُّ فرض الآراء بالقوّة، والتدخّل في خيارات النّاس وأحلامهم، وحتى طريقة لبسهم ومآكلهم! ولأنّ الدّين - أي دين - هو عاملٌ مهمٌ وجذابٌ للهيمنة.. يتمُّ ابتزاز النّاس كثيراً باسمه، بينما الأديان

بريئة ممن يدعي حراستها.

تلك العقائد المتطرفة تُدمر المعنى الإنساني للوجود، وتحوّل الوعود بالجنة إلى أعراس للدم. وما زلنا كشعوبٍ عربيّة نشتبك مع بعضنا البعض لدرجة التعقيد والوصول إلى طريقٍ مُغلِقٍ ومسدود، وللدرجة التي لم نستطع فيها تقديم حلول عقلانيّة أساسها القانون الذي يحترم حقوق الإنسان ومبادئ المساواة وعدم التمييز الذي هو هدفٌ أسمى ونبيل لكلّ الرّسالات السماويّة.

يعدُّ التطرّف الديني أو «الفاشيّة الدينيّة» داءً قاتلٌ ومتوحّش يُريدُ تطبيق الشريعة الرّبّانية والقشور المُختلف عليها على الأرض حتّى لو كان ذلك غضباً عن البشر، مُستخدماً كل الأساليب المُتاحة من الترغيب، الترهيب، التعذيب، العنف، التفجير والحروب أيضاً. وعادةً ما يكون للتطرّف دورٌ سياسيٌّ، باعتبار أنّ جماعة ما.. تمّ تفويضها من الله سبحانه وتعالى لكي تُهدي الشعوب الضالّة وتُنقذهم وتُقودهم إلى الجنة، وبشيء من الإجبار المعنوي تنقّاد الجموع الغفيرة من الناس البسطاء نحوهم ومعهم، لكنّ الإنسان البسيط لا يعمل على إقصاء الآخر إلّا إذا.. تمّ شخنه وتأجيجّه كأن يُشارك في معارك طائفية كما حدث في الحرب الأهلية في لبنان. تلك الجماعات التي تعمل على تطويع النصوص الدينيّة والفتاوى لخدمة الأهداف السياسيّة والسّيطرة على شعبٍ ما، لا بدّ أنّها لا تعرف معنى التعايش السلمي، وليس لديها في قواميسها ما يدلُّ على محبّة الآخر، لديها فقط من الخطط ما يكفي لنشر

أفكار الإقضاء والعنف الفكري وإشاعة العداة بين الشعب نفسه، أو بين شعبيهم.. والشعوب الأخرى، راغبين في السيطرة على المؤسسات الدينية ودور العباداة، معتبرين أنفسهم الفرقة الناجية، مخطئين الآخرين ومستخفين بطقوسهم وشعائريهم.

الأفكار والتصورات والعقائد التي يظنها الناس نافعة تكتسب لديهم صفة العظمة والقدااسة حسب ما يقوله «د. جاد الجباعي» بحيث تغدو في نظرهم حقائق كليلية ثابتة، ويدخل نقدها أو تنفيذها في باب المحرمات، كما أن الخروج عليها.. هو خروج على الجماعة، ولا بد أن يضرب على يد الخارج عنها بشدة وحزم. فالتاريخ حسب قوله أيضاً «حافل بصور اضطهاد المصلحين والعلماء والمفكرين الأحرار الذين لا تلبث مجتمعاتهم أن تعرف بفضلهم، وتنوء بمكابدتهم لإظهار الحق، فيدخل في أوهام الناس أن إظهار الحق.. مقرون بالمعاناة والمكابدة».

لا أقصد أبداً استعداد التوجه الديني لأبدو في موقف كاره لا سمح الله، إنما أريد الإشارة إلى الدور السلبي فقط للاختلاف والتطرف بدلاً من البحث عن طرق للتقارب والحفاظ على العلاقات الإنسانية، كما يزعجني كثيراً فشل الإنسان في قدرته على التسامح والانصهار الاجتماعي، بل أصبح نجاحه الوحيد هو التنافس بالذم والقذح والتحقير والتشهير أو التعرض للأديان أو المذاهب والطوائف الدينية والقوميّات، أو حتى لرجال الدولة، سواء كان يقوم بذلك متعمداً، أو مقلداً، أو غافلاً.

هذا الفسَل، وهذا التناحر والتنافر والتشاور لا يحدث فقط بين المُجتمعات المُختلفة، ولكنه يحدث حتى بين أنصار الديانة الواحدة المُختلفين في المذهب، مثلاً (الألبان والصرب، الكاثوليك والبروتستانت، السنة والشيعة)، ومن جهة أخرى يحدث أيضاً داخل المُجتمع الواحد مثل الصراع (الطبقي الاقتصادي، الثقافي، المكانة الاجتماعية، التقاليد والأعراف، درجة التدين....).

الناس مُختلفون بالفِطرة كما يقول «د. صالح بريك» في كتاب «الكُرهُ واللاتسامح مع الآخر»، وهذا الاختلاف يُمثل بالمُطلق إبداعاً حقيقياً للطبيعة، إنه جميلٌ وممتعٌ للعين والأذن والذوق ولكل نوافذ الإنسان إلى العالم الآخر، لأن القبح يكمن في الرتابة والرؤيتين والنمطية، لكن هذه الحقيقة للأسف لا تزال بعيدة عن الإنسان ووعيه، خاصة في ظلّ ارتباطه بِحاجته للأمان وحفظ البقاء التي تفوق أهمية كل القيم الفنية والجمالية.

ونحنُ أكثر من أي وقتٍ مضى بحاجة لمفهوم كالتسامح مع أنفسنا أولاً، ومع قبول الآخر الذي يختلف عنا من ناحية الدين أو المذهب أو الجنسية أو اللغة، لقد باتت الفوارق أكثر وضوحاً الآن في ظلّ ثورة المعلومات والاتصالات، والثورة التكنولوجية التي أزالَت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب، نحنُ بحاجة لأن نعزف ضمنَ (أوركسترا) واحدة، بحاجة إلى (هازموني) بين الأنغام المُختلفة معاً من غير تناقضٍ أو نَساز.

وحقيقة.. فلا يُمكن أن يحدث التعايش بين الأفراد أو

المُجتمعات إلا إذا سَيطرنا على إحساسنا بوجود فروق جوهرية بيننا وبين الآخرين، وسلكنا طريق الموازنة بين أفكارنا والحريات الفردية والعامّة، فلا نتخذ من الأشخاص أضناماً تُعبد، ولا من التوجّهات والسياسات والإيديولوجيات أدياناً تُزهق في سبيلها أزواج الأبرياء لمجرّد مخالفتهم لهؤلاء الأشخاص أو لتلك التوجّهات.

إنّ البحث عن التّسامح والتّعايش السّلمي بين مُختلف أطياف المُجتمع الواحد هو غاية سامية لم يحتكرها فردٌ أو عصرٌ بذاته عبر التاريخ، إنّها تتفق مع تعاليم الديانات السماوية والإسلام الحنيف خاصة وليس فقط مع الكريشنيّة، والبحث عنها أزلّي مرتبط برغبة الإنسان في اكتشاف أمن ذاته وحياته.. والكون الذي يعدُّ هو جزء منه.

الأشياء المقدّسة كما يذكر «كريشنا» تبدو لا أهميّة لها بالنسبة لنا ومجرّد خرافاتٍ إذا كانت تعود إلى دياناتٍ غير ديانتنا، أمّا معتقداتنا فسنعتبرها بالتأكيد منطقيّة وذات جذور صحيحة ومقدّسة. «ففي الكاثيدرائيات الواسعة والمساجد الأنيقة حين تدوي الأغاني والترانيم والتلاوات.. تفتح القلوب وتذهب مباشرة إلى دموع الجمال، وبدون مدى لا يوجد جمال، إذ لا يبقى في الضيق سوى جدران ومقاسات، وإذا ما غاب الوسع فإننا نُصبح كائناتٍ عنيقة وبشعة. لأنّ تغريد عُصفور، وصوت نايٍ بعيد، ونسمة ناعمة بين أوراق الأشجار، هي ببساطة ما يُهدّد الجدران التي شيدها البشر لأنفسهم».

إِنَّ أفعى التبعيَّة والاعتماد على الآخرين تتسلَّل إلينا بطرق
عديده، للدرجة التي يُصبح القضا عليها أمراً صعباً للغاية، ويظهرُ
ذلك جلياً في مُحاورات «كريشنا» وسُخريته من «المُعَلِّم»، أو كما
يُعرف في اللُّغة السِّنسكريتية بالـ «غورو Gourou»، أي الذي يُحرِّر
الآخرين من الجَّهْل، وإنَّ كانا يتفقان على أهميَّة التأمل، إلاَّ أنَّ
(التأمل الواعي) في الكريشنيَّة ليس تأملاً، لأنَّ (التأمل الحقيقي)
يأتي من تلقاء نفسه.. وبَعفويَّة أكثر.

إذن.. إلى ذلك الكيان البعيد ينتمي «كريشنا».. بعيداً عن
أضواء السُّلطة وبريق الإعلام، والتُّكنولوجيا، بعيداً عن صِراع
التيارات والأديان والمذاهب، وجدل المُتفقين، وبعيداً أيضاً عن
هذا الكيان الكبير يختارُ فلسفته ويكتبها، بل.. هو فلسفةٌ بحدِّ ذاتها.
فلسفةٌ اعتمدت على صياغة تقتربُ إلى الإلهام، تُخاطبُ أصحاب
الأذواق الإنسانيَّة، بدلاً من مُخاطبة (العقل) وحدهُ بوصفه الأداة
الأكثر صلاحيةً للوصول إلى العِلْم والمعرفة واليقين. بِمعنى أنَّ ما
يَدْعُو إليه يُلجُّ في (قَلْب) العالمِ مِنْ جهة.. وإلى أعماق الإنسان
من جهةٍ أخرى.

الحضارة التي نعيشها اليوم من صَّحيج، وتلوُّث، وعدوانيَّة، ما
هي إلاَّ عوامل تتركُ جروحاً حيَّة في العقل والقلب. ويُمكننا نحنُ
أيضاً إسقاط هذه الفكرة على ازدحام الشوارع في المُدن الكبيرة
والعواصم حين تُصبحُ تصرفات البشر وأمزجتهم قابلةً للانفجار
في أيِّ لحظة.

ويظهرُ أنَّ الاحتفاظَ بأثر هذه الجُروح طيلة الحياة.. هو من صَمِيمِ الطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ، وكما قال في إحدى مُحَاضِرَاتِهِ المَنْقُولَةِ بِأَنَّ كَلِمَةَ «بِرَاءة» مُشْتَقَّةٌ مِنْ كَلِمَةِ لَاتِينِيَّةٍ تَعْنِي «غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى التَّأْذِي»، وَلَكِنْ مَا يَحْدُثُ لَنَا فِي الْوَاقِعِ فَعَلًا.. هُوَ أَنَّ أَغْلَبَنَا يَتَأَذَى مِنْ جَرَاءِ جَمِيعِ الذِّكْرِيَّاتِ الَّتِي رَاكَمْنَاهَا، وَمِنْ أَشْوَاقِنَا، نَدْمُنَا، عَزْلَتِنَا، وَمَخَافَتِنَا.. الَّتِي هِيَ كُلُّهَا جُزْءٌ مِنْ هَذَا الْإِحْسَاسِ بِالْأَذَى.

مِنْ هُنَا.. وَفِي يَوْمِيَّاتِهِ يَبْدُو «كْرِيشِنَا» عَاشِقًا مُخْلِصًا لِلْفِظَةِ «الْحُبِّ» وَمَعْنَاهَا، وَيُعْتَقِدُ تَمَامًا بِأَنَّ «لَا حَبَّ.. حَيْثُ الْأَذَى»، لِأَنَّهُ يُدْرِكُ بَعْمَقٍ وَوُضُوحٍ بِأَنَّ الْحُبَّ لَيْسَ مُتَعَةً، أَوْ دَيْمُومَةً الشَّهْوَةِ، أَوْ إِحْسَاسٍ فَيْسِيُولُوجِيٍّ، أَوْ صَدَاقَةٍ، أَوْ أَلْفَةٍ، أَوْ انْجِدَابٍ لِلْآخِرِ، أَوْ شَيْءٍ يُؤَلَّدُ مِنْ تَضَافِرِ الظُّرُوفِ، لَا شَيْءٍ مِنْ هَذَا كُلِّهِ.. هُوَ الْحُبُّ الَّذِي يُؤْمَنُ بِهِ. فَهُوَ يَدْعُونَا إِلَى الْإِيمَانِ فَقَطْ بِأَنَّ «الْحُبَّ.. جَبَّارٌ كَالْمَوْتِ»، وَإِنْ كُنَّا نَجْهَلُ حَقِيقَةَ الْإِثْنِينَ. أَقْصِدُ الْحُبَّ وَالْمَوْتَ الَّذِي يَجْمَعُنَا.. وَيُفَرِّقُنَا أَيْضًا.

العنف..
يبدأ قبل الصّفة الأولى

مكتبة

t.me/soramnqraa

العنف..

يبدأ قبل الصفعة الأولى

روابطنا الاجتماعية وعلاقتنا الإنسانية.. هي التي تُحدّد إلى درجة كبيرة هويّتنا الشخصية، بل هي ما تُعطي معنى لسعادتنا وحياتنا، لهذا نُفضّل نحنُ مُعظم البشر أن نكونَ بصحبة الآخرين مُعظم الأوقات. وفي السُّطور التّالية أحوّلُ رُبطَ العلاقات والاختيارات الخاطئة للـ (شريك) بمفهوم التعاسة، والتي قد تتصاعد وتتطور ثمّ تتحوّل فيما بعد إلى جرائمٍ مخيفة أو مخفية.

نُحاولُ هنا الرُّبطَ بين طريقة التّعامل مع (العنف الخفي) أو ما يسمّى بـ (العنف المَعنوي)، أو (العنف غير المُباشر) أو (التحرُّش الأخلاقي) الذي يشكّل بطبيعته المُدمرة حُطاماً معنوياً وبدنياً، يُفقدنا السّيطرة على التّفكير السليم، ومُمارسة حياتنا التي تمنّيناها سعيدة، والتي قد تُجبرنا على تحمّل ضربات الأذى، الواحدة تلو الأخرى. من الجيّد أن نعلّم بأنّ ليس الأوغادُ وحدهم الذين يُجَاهرون بِخِداع النّاس ومُمارسة العنف عليهم، هناك من يُخادع بِلُطفٍ ويُسَمّى (حبيباً) و(سيّداً) أيضاً، ورُغم أنّ هناك قوانين تُعاقب بِشِدّة شخصاً ارتكبَ حادثَ سرقة أو جريمة قتل، لكنّها لا تهتمُّ بمن يرتكبون جريمة تلوِيثِ قلوب، وعواطف، وثقة الآخرين بذواتهم،

حَتَّى أَنَّا لَمْ نُحَاوِلْ أَنْ نُقَدِّرَ مَدَى الضَّررِ أَوْ حَجْمِ الخَسَارَةِ الَّتِي يُعَانِي مِنْهَا شَخْصٌ تَعَرَّضَ إِلَى هُجُومِ مَعْنَوِي، أَوْ عُنْفٍ مِنَ النُّوعِ الَّتِي يَبْقَى مَخْجُوباً وَسَرِيّاً جِداً وَمُتَدْرِجاً عَلَى جُرْعَاتٍ وَخَطَوَاتٍ صَغِيرَةٍ وَبَطِيئَةٍ.. لَا يَلْحَظُهَا أَحَدٌ سِوَى ذَلِكَ الَّتِي يُعَانِي مِنْهَا.

لَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نُعَاقِبَ مِثْلًا مِنْ يَتَحَدَّثُ عَنِ الأَلْوَانِ أَمَامِ الأَعْمَى وَيَدَّعِي عَدَمَ الأَنْتِبَاهِ أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟!، بَيْنَمَا مِنَ المُفْتَرَضِ أَنَّ النِّظَامَ الأخْلَاقِي يُشَبِّهُ تِلْكَ السُّبُلَ الَّتِي تَعَلَّمْنَاهَا لِلبَقَاءِ أَصِحَّاءَ أَوْ عَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ، كَأَنَّ لَنَا نَضْعَ أَصَابِعِنَا فِي النَّارِ حَتَّى لَا تَحْتَرِقَ، أَوْ أَنْ نَقْدَى إِشَارَةَ المُرُورِ الحَمْرَاءِ.. وَذَلِكَ بِالتَّوَقُّفِ قَبْلَهَا.

وَلَا أَذْرِي لِمَاذَا لَا نَجْرُؤُ عَلَى تَسْمِيَةِ الأَلَمِ الحَقِّي بِمُسْمِيَاتِهِ الحَقِيقِيَّةِ، وَلِمَاذَا لَمْ نُحَدِّدْ يَوْمًا مَتَى يَكُونُ الضَّعِيفُ.. ضَعِيفًا حَقًّا، أَوْ مَتَى يَتِمُّ تَوْظِيفُ الضَّعْفِ المَزْعُومِ مِنْ أَجْلِ خِدَاعِ الأَخْر. بِبِساطَةِ لَا أَظُنُّ أَنَّ العُنْفَ أَصْبَحَ مَهْمَةً المُجْرِمِينَ وَالأَوْعَادِ وَحَدَمِهِم.

يُمَكِّنُنَا أَنْ نَفْهَمَ التَّحَرُّشَ الأخْلَاقِي أَوْ المَعْنَوِي بِمَعْنَى (الإيذاء المُتَدْرِج) الَّتِي يَحْوُلُ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَكِرَامَتِهِ، أَوْ الَّتِي يَمْنَعُ المَرءَ مِنْ أَنْ يَحْتَرِمَ ذَاتَهُ وَيُقَدِّرَهَا، وَهُوَ لَا يَقِلُّ فِدَاحَةً عَنِ عَوَاقِبِ العُنْفِ الجَسَدِي، لِأَنَّهُ قَهَرَ نَفْسِي بِالتَّسَمُّ بِالأَيْسِ وَالعِجْزِ وَالدَّلِّ وَالمَهَانَةِ.

وَفِي كِتَابِ «التَّحَرُّشُ الأخْلَاقِي - العُنْفُ اليَوْمِيُّ الفَاسِدُ» الَّتِي تَرَجَمَهُ «سُهَيْلُ حَمْدُ أَبُو فخر»، تُحَاوِلُ «مَارِي فِرَانْسُ هِيرِيْجُوِيَانُ/ Marie-France Hirigoyen» بِصِفَتِهَا اخْتِصَاصِيَّةً فِي عِلْمِ الضَّحِيَّةِ أَنْ تَصِفَ العُدَاءَاتِ الَّتِي تَنْجُمُ عَنِ «سُلُوكِ تَدْمِيرِ سِيكُولُوجِي لا وَاِع

مَكُونٌ من تصرُّفات عدوانية واضحة أو مستورة يقومُ بها شخصٌ أو مجموعة أشخاصٍ إزاء فردٍ مُعيَّن. فمن المُمكن فعلياً عبر كلماتٍ غير مؤذية ظاهرياً وعبر تلميحاتٍ وإيحاءاتٍ ومسكوتاتٍ، أن نُزعج إنساناً ما، أو نُحطِّمه“.

كما تُحاول المؤلِّفة أن تكشفَ تفكيكَ السِّياق الذي يربط (الجاني) بـ(المجني عليه) عبر تحليل لغة المُتحرِّشين بنا معنوياً، وذلك بهدف مُساعدة الضَّحية التي ما زالت تُعاني، وهي لا تُقصد إدانة المُتحرِّش لأنَّه قادرٌ على الدِّفاع عن نفسه.. بل تُريد أن نأخذ في الحُسابان ضررهم وخطورتهم بإنصافٍ كبيرٍ، فقد تُكونُ هناك تحرُّشات تافهة تتركُ أثراً مريراً وخجلاً فقط، ولكن بالمُقابل هناك تحرُّشات أكثر خطورة تُصيب الضَّحايا في العمق، وتكونُ فيها المُسألة إمَّا حياة.. أو موت.

مُصطلح الـ«تحرُّش» بحدِّ ذاته ثقيلٌ ومؤذٍ، ولكنَّ المعنى الذي تُقصدُه المؤلِّفة هنا يختلف عن معنى «التحرُّش الجنسي» أو التصرف ذو الطابع الجنسي الذي يفرض دونَ مُوافقة الطرف الآخر، والذي يعرفه المُختصُّون على أنَّه جريمة عُنف تُنفَّذُ بواسطة السلوك الجنسي هدفها التعبير عن القوَّة والسَّيطرة على الضَّحية وإهانتها. مثل مُضايقات كلامية جنسية، الكُشف عن الأعضاء الجنسية، استراق النَّظر، اللَّمس، المُضايقة عن طريق الهاتف، مُحاولة اغتصاب أو اغتصاب فعلي، اعتداء جنسي من أحد أفراد العائلة، فرض مُمارسة الجنس لفترة طويلة، مُمارسة الجنس مع

قاصر، تحرُّش جنسي في مكان العمل أو في أيِّ مكانٍ آخر.

بهذا المعنى يُعتبر «التحرُّش الجنسي» ما هو إلاَّ خطوة إضافية على «التحرُّش الأخلاقي» والذي هو عبارة عن تصرفات صغيرة تحدث يومياً بحيث تُصبح (عادةً)، أي يعتادها كلُّ من الجاني والضحية التي غالباً ما تكون قد تعرَّضت إلى تخريبٍ وتهديمٍ وتحطيمٍ نفسيٍّ بصورةٍ يوميةٍ تقريباً، وحتى حين تلجأ للاستشارة النفسية يكون ذلك سبب عدم الثقة بالذات، أو حالة اكتئاب مزمنة استعصت على الأدوية، أو أنها وصلت أحياناً إلى الشعور بالرغبة في التخلص من الحياة بالتفكير بالانتحار، أو الإقدام عليه فعلاً.

وفي ذات الوقت الضحية نفسها.. لا تدرك السبب الحقيقي وراء ما تشعر به، ولا تعرف بأنها تتعرض إلى نوعٍ خطير من العنف والعدوان، الأمر الذي يجعلها تشكُّ في ما يحدث لها وتتساءل: «ألا يمكن أن أكون أنا من اخترع كل هذا مثلما يوحي إليَّ البعض!!».

من هذا المنطلق أظنُّ أن «أخطر أنواع العنف.. هو ذلك الذي يقول عن ذاته بأنه ليس عنفاً» على حدِّ تعبير «بيار بورديو Pierre Bourdieu». وإن كان كلُّ منا قد ينتهج سلوكاً عنيفاً من وقتٍ لآخر بسبب الغضب مثلاً، إلاَّ أنَّ هذا السلوك لا يُصبح مُدمراً إلاَّ عبر التواتر والتكرار. حينها يُصبح ما نفعله عنفاً خفياً مضمرًا، ومع الأيام نطلق عليه (عنفٌ مُزمن)، وأحياناً (عنفٌ يومي).

أمَّا رغبة البعض في احتمال عنفٍ كهذا، وعدم الرغبة في الانتفاض والثورة عليه قد تكونُ بسبب عدم قدرتهم على التخلي

عن الأشخاص الذين يعيشون معهم واعتادوا على وجودهم، أو الخوف من الخوض في تجربة أخرى قد تجلب لهم (السعادة) التي خذلتهم، أو التي بسبب أزمات مروا بها أصبح مفهوم (الراحة) لديهم عبارة عن خرافة لا يمكن أن يعول عليها.

نحنُ عموماً نُنكر (عُنفنا) كما يقول الزعيم الهندي الراحل «المهاتما غاندي»، إمّا لأننا جاهلون به، وإمّا لأننا لا ننظر إلى العنف إلا في وجه المادّي، فيمكن بمعاينة الطيب أو شهود العيان أن يفضح العنف الجسديّ أو ما يسمّى بالعنف التقليدي كـ (الشجار، الاعتداء الجنسي، الضرب، أعمال التخريب....)، أمّا التحرش الأخلاقي فلا يمكن إثباته، إنه «جوّ نسّم فيه رائحة المحرّم من دون أن نراه»، وهذا ما جعل المؤلّفة تطلق عليه «المحرّم الناعم»، حيث لا نجد ما يُمكننا أن نشتكى منه إلى القضاء، ولا يُمكننا كذلك أن نصّف شكوانا أو نطلب المساعدة من أمرٍ يضعب لمسه، أو القَبْض عليه.

في هذا النوع من العنف.. يضمّر الوجدان ويتلاشى، ممّا يجعلنا نمتلك بالشك في قدراتنا وثقتنا، لا شيء يُمكن أن نُثبتهُ على من قام بأذيتنا، نحنُ نبقى هكذا مذهولين متألّمين متشكّكين بما نراه ونسمعه وما نشعر به، ومُذبذبين بين التصديق وتأنيب الضمير، وحول خوفنا من أن نظلم الشخص الآخر. أعني طبعاً هذا الشخص الذي غالباً ما يحتلّ مساحةً شاسعة في أرواحنا، وقريباً جداً منّا، كالزوج، رب العمل، الأخ... أو صديق كاتم لمُعظم أسرارنا.

ولأنه عُنْفٌ ذَكِّيٌّ، و(نَظِيفٌ)، بمعنى.. أن لا آثار مَلْمُوسَةٌ تَكشِفُه، فَإِنَّهُ يَسْتَعْدِمُ قَامُوسَ اتِّصَالِ لا شَفَهِي خَاصٌ بِهِ. كـ (التَّنْهَدَاتِ الْمُفْرِطَةِ، عَدَمِ إِلْقَاءِ التَّحِيَةِ، هَزِ الكَتْفَيْنِ، نَظَرَاتِ الاِزْدِرَاءِ، صَمْتِ مُطْبِقِ، تَمْتَمَةِ، تَلْمِيحَاتِ، هُجْرَانِ، تَجَاهَلِ، إِشَارَاتِ، افْتِرَاضَاتِ، أَوْ مُجَرَّدِ الإِبْعَادِ وَالِإِقْصَاءِ). أَوْ أَنَّهُ قَدْ يَسْتَعْمَلُ الهُجُومَ عَلَى الأَشْيَاءِ مِثْلًا بَدَلًا مِنَ الضَّحِيَةِ ذَاتِهَا، كَأَن يَبْدَأُ بِـ (صَفَحِ الأَبْوَابِ بِقُوَّةِ، البَصْقِ عَلَى الأَرْضِ، فَتْحِ وإِغْلَاقِ الدَّوَالِبِ وإِضْدَارِ أَصْوَاتِ مُزْعَجَةٍ، رَكْلِ الأَثَاثِ، كَسْرِ الأَكْوَابِ وَالمَرَايَا، وَالزُّجَاجِ، رَمِي الأَشْيَاءِ عَلَى الأَرْضِ بِعَصِيَّةٍ مَعَ إِنْكَارِ أَي شُعُورٍ عَدَائِيٍّ تَجَاهَهَا).

وكَمَا قُلْنَا.. بِأَنَّ هَذِهِ المُنَاوِرَاتِ لَيْسَتْ مُؤَذِيَّةً فِي بَدَايَتِهَا، لَكِنهَا تُصْبِحُ أَكْثَرَ عُنْفًا إِذَا تَمَّتْ مُقَاوَمَتُهَا أَوْ مُوَاجَهَتُهَا، وَقَدْ تَنَحَّوَلَتْ فِي حَالَاتٍ نَادِرَةٍ إِلَى عُنْفٍ لَفْظِيٍّ كـ (اسْتِخْدَامِ أَلْفَاطٍ بَدِيئَةٍ وَجَارِحَةٍ وَمُهَيِّنَةٍ، الشَّتَائِمِ وَالسَّبَابِ، المُعَايِرَةِ بِالأَصْلِ وَالعَائِلَةِ، حِدَّةِ النِّبْرَةِ وَالمَصْرَاحِ...)، كَمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ التَّحَرُّشُ الأَخْلَاقِي جَسَدِيًّا أَيْضًا كـ (تَعَمُّدِ الإِهْمَالِ الذِّي يُؤَدِّي إِلَى وَقُوعِ حَادِثِ مَا، أَوْ الاِضْطِدَامِ الجَسَدِيِّ، أَوْ تَرْكِ الأَشْيَاءِ الأَيْلَةَ لِلسُّقُوطِ مِنْ وَاقِعِ المَعْرِفَةِ بِأَنَّ الضَّحِيَةَ سَتَمَرُ عِبْرَ هَذَا المَكَانِ المَتَدَاعِي، وَلِيَبْدُو الحَادِثِ فِي نِهَائِهِ الأَمْرَ كَمَا لَوْ كَانَ بِمَحْضِ المُضَادَّةِ)، وَقَدْ تَنَقَّلَ أَيْضًا إِلَى مَرَحَلَةِ الاِغْتِدَاءِ الجَسَدِيِّ المُبَاشِرِ مَعَ الوَقْتِ، وَلَكِنْ إِذَا وَصَلَتْ إِلَى هَذَا الحَدِّ فَإِنَّ ذَلِكَ يُعْتَبَرُ انْتِزَاقًا لِلْمُعْتَدِي الذِّي يَفْضَلُ طَبْعًا أَنْ «يَقْتُلَ

بصورة غير مباشرة، بل أن يقود الآخر.. لأن يقتل نفسه».

ولهذا فإن (الصفعة الأولى) التي قد تلقاها الضحية قد تكون من وجهة نظري في صالحها فعلاً إن صح التعبير، لأنها ستعتبر دليلاً على وجود عنف ما يعاقب عليه القانون، وإن كان لا يمكنني اعتبار تلك الصفعة بداية مرحلة العنف، فمن ناحية إيجابية من المفترض أن يكون العنف في مرحلته النهائية حين ينبه الضحية الغافلة بأنها تعيش عنفاً حقيقياً وغير متوهم، وهذا يعني أن (الصفعة الأولى) لم تكن الأولى أصلاً، وإنما كانت تسبقها خطوات صغيرة، أو وخزات لم يكن من السهل ملاحظتها.

إن السخرية من الآخر بشكل مستمر، والمذلة والاستهتار بإعاقته أو عجزه أو شكله.. هي سلاح الجاني الذي يختبئ خلف قناع (الدعابة). أو كما تقول المؤلفة بأنه «يكفي زرع الشك في رؤوس الآخرين (آلا تعتقد أن...»، أو إبداء الموافقة على اقتراح ما بينما يبيد للآخر بحركات إيمائية أنها مجرد موافقة شفوية، وحالما تنفجر الضحية، أو تثور، أو تكتئب.. فإن المعتدي يجد هنا ما يبرر تحرشه بها: (هذا لا يدهشني.. إن هذا الشخص مجنون حقاً).. إنها متعة دفع الآخر للمواجهة».

وهكذا.. فإنها اعتداءات غير مباشرة، لا يمكن للضحية أن تجد أي دليل يثبت تورط الجاني أو أي أداة تستطيع بها الدفاع عن نفسها، فكيف لها أن تصف مثلاً نظرة مليئة بالكراهية، أو صمت مليء بالاختقار، أو هجران مليء بالعدوان؟! حتى أن النظام

القضائي يمنع تسجيل المكالمات الخاصة من دون موافقة المعني بذلك، وهذا أمر مؤسف فعلاً لأن العنف المعنوي عادة ما يظهر على الهاتف جلياً.

التحرش الأخلاقي.. يتواجد في الأسرة وبين الزوجين الشريكين الذي اختار كل منهما الآخر، ويتواجد أيضاً في الصداقات، في العمل والجامعات والمدارس حين يضطر الموظفين أو الطلاب للاستلام والاستمرار في عملهم ودراسهم بصورة يائسة.

هؤلاء المتحرشون بنا معنوياً.. يعرفون جيداً كيف يزرعون الأذى في ذاكرتنا، ويستمتعون بقلنا وارتباكنا وحيرتنا نحوهم، ولا ندري أية كلمة منهم، أي لفظية، أي ضحكة، أو أي ابتسامة بالضبط قد أصابت أرواحنا، إنها شظايا فقط.. لكنها حارقة، يطلقونها علينا، ويؤمنون بأننا سنحترق في تفسير معناها، يمتصون عاطفتنا في كل موقف رشفة.. رشفة، ونصل مُتهاناً حين نهمل هذا الامتصاص أو نعتاد عليه، ثم نفقد ذواتنا شيئاً.. فشيئاً، ويستحيل بعدها أن نشعر بنا. في البدء يصف الكتاب الضحية حين يتم اصطياها في شرك العنكبوت، فتكون تحت التصرف مقيدة نفسياً ومخدرة، عالقة تماماً بحيث لا تشعر بالتحطيم. في هذه المرحلة تبدو جميع التفاصيل غير مؤذية إذا تم أخذها بشكل (منفصل)، لكنها في مجموعها تخلق سياقاً مدمراً، فيمرر المعتدي رسالته مستخدماً التلميح دون أن يترك دليلاً ملموساً، ودون أن يتورط بأداة واضحة، ثم تقوم المفارقة

يُشْعور الضَّحِيَّة بالتَّوتِر والعُدوانية دُونَ سببٍ مُباشِر يَفْهَمُهُ الجَمِيعُ، وهو الأمرُ الَّذِي يَدْفَع المُعْتَدِي على القيام باعتداءات جديدة أكثر عُنْفاً.

صحيح أننا لا نَتَعَرَّض للموت حَقاً من جَرَاء هذه الاعتداءات المُشوِّشة وغير الواضحة، ولكننا قد نَفْقِدُ قِسْماً من تقديرنا لأنفسنا، فنَعُودُ كُلَّ مساءٍ إلى فِرَاشنا مُتَعَبِينَ، مُنْهَكِينَ، ذَلِيلِينَ، يَضَعُبُ عَلَيْنَا النُّهُوضُ من جديد». وقد نُصْبِحُ مُتَوَاطِئِينَ كَوْنَنَا مَمْنُوعِينَ من رَدِّ الفَعْلِ وَمَصْعُوقِينَ تَمَاماً، وكأننا تحوَّلنا إلى مجردِ شيءٍ من الأشياءِ، لا نَتَمَتَّعُ بتفكيرٍ خاصٍ، بل قد نُفَكِّرُ كَمَا يُفَكِّرُونَ، لأننا لم نَعُدْ نَحْنُ بِصُورَةٍ كاملة.. كما لم نَعُدْ نُشْبِهُ أَنْفُسَنَا.

في كُلِّ مَوْقِفٍ نُحَاوِلُ أن نَجْمَعِ الألفاظَ، الكَلِمَاتِ، اللُّومَ، التَّوْبِيخَ، الشَّتائمَ، والسُّخْرِيَّاتِ المُضْحِكَةَ التي عَابَيْنَا مِنْهَا وتُعَرَّضْنَا لَهَا، ولا نَجِدُهَا مُقْنَعَةً إِنْ قَصَصْنَاها على أَحَدٍ غَيْرِنَا، إِنَّها تَبْدُو نَافِئَةً في مُفْرَدِها، إِنَّمَا مُقْبِتَةٌ ومُؤْذِيَةٌ في ذَاكِرَتِنَا التي رَاكَمَتْ الكَثِيرَ من ذَرَّاتِ الأذَى الصَّغِيرَةِ حَتَّى أَصْبَحَتْ هَذِهِ الذَّرَّاتُ كَوْمَةً من القَدَارَةِ والأَلَمِ النَّفْسِيِّ الَّذِي نَحْتَمِلُهُ وَحِدْنَا، وَنُصَابُ بِهِ دُونَ أَنْ نَتَمَكَّنَ مِنْ شَرِّهِ.. وَتَفْسِيرِهِ لِلغَيْرِ.

فقد يَعتَبِرُ الآخَرُونَ حَكَايَانَا ذَلالَةَ على الحَسَّاسِيَةِ المُفْرَطَةِ، أو الضُّيْقَ اللَّحْظِي الَّذِي نَمُرُّ بِهِ، قد يَنْصَحُونَنَا بِأَنْ لا نُبَالِغَ بِرِهَابَتِنَا وَأَنْ لا نَجْعَلَ الأمرَ شَيْئاً مُتَجَاوِزاً.. حَتَّى لا نُصْبِحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الشَّرِّيكِ الَّذِي نَشْكُو مِنْهُ تِلْكَ الفَجْوةَ، وَأَنْ نَتَغَاصَى وَكأنَّ ذَلِكَ الأذَى لَمْ

يحتلُّ بُؤرةَ تَعَبِنَا، إِنَّهُمْ عَلَى الْعَكْسِ يَرُونَ مَا يَحْدُثُ لَنَا هَامِشِيًّا
أَوْ غَيْرَ ذَا أَهْمِيَّةٍ.. بَيْنَمَا دَوَاخِلُنَا تُصَابُ يَوْمًا عَنْ يَوْمٍ بِالْقَهْرِ، وَقَلَّةُ
الْحِيلَةِ، وَعَدَمُ وَجُودِ أُدْلَةٍ مَادِيَّةٍ تُدِينُ الْمُعْتَدِي، حَتَّى نُصَابَ فِي
لَحْظَةٍ بِعَاهَةِ فِي أَعْمَاقِنَا، تَكْبَرُ مَعَ الْأَيَّامِ، وَقَدْ تَكُونُ مُسْتَدِيمَةً..
وغير قابلة للشفاء.

الضَّحِيَّةُ تَعِيشُ مُنْهَكَةً فِي دُرُوبِ الْحِيْرَةِ وَالْقَسْوَةِ، وَدَاخِلِ
أَسْوَارِ تَفْرِضُهَا الْمُعَانَاةُ مِنْ أَدَى لَا يُمَكِّنُ إِبْتَاتَهُ، أَوْ الْاِقْتِرَابُ مِنْ
خَطَرِ الْمُصَارَحَةِ بِهِ، قَدْ تَعْتَزَلُ الْعَالَمَ وَتَدْخُلُ فِي كَهْفِ ذَاتِي،
تُضْبِحُ فِي عَيُونِ الْآخِرِينَ كَأَنَّهَا غَرِيْبًا لَا يَحْمِلُونَ لَهُ إِلَّا مَشَاعِرَ
مُحَايِدَةٍ، بَيْنَمَا يَتَمَادَى الْمُتَحَرِّشُ فِي التَّطْرَفِ، وَيَكْبُرُ عَبْرَ تَحْقِيرِ
الضَّحِيَّةِ لِلدَّرَجَةِ الَّتِي يَدْفَعُهَا شَيْئًا.. فَشَيْئًا إِلَى مَكَانٍ هَامِشِيٍّ، ثُمَّ
يُبْرِّزُ لِنَفْسِهِ الْأَنْسِحَابَ أَوْ الْخِيَانَةَ، أَوْ التَّزْوِجَ بِأُخْرَى مِثْلًا، وَذَلِكَ
فِي أَوَّلِ فُرْصَةٍ يَبْتُ فِيهَا أَنَّ الْكَائِنَ الَّذِي يَعِيشُ مَعَهُ حَالِيًّا.. لَمْ
يُعَدْ كَائِنًا عَلَى الْإِطْلَاقِ.

وَرُغْمَ اسْتِعْرَاضِ الْكِتَابِ لِشَتَّى أَنْوَاعِ التَّحَرِّشِ الْأَخْلَاقِيِّ، إِلَّا
أَنَّ مُحَاوَلَةَ مُعَالَجَتِهَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُحَقِّقَ نَفْسَ الْفَاعِلِيَّةِ بِالنَّسْبَةِ لِكُلِّ
الْمُجْتَمَعَاتِ، خَاصَّةً مُجْتَمَعَاتِنَا الْعَرَبِيَّةِ. لَكِنَّ الْمُدْهَشَ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى
كَمَا تَقُولُ الْمُؤَلِّفَةُ هُوَ «قُبُولُ الضَّحَايَا بِقَدْرِهِمْ، وَذَلِكَ لِأَنَّ خَطَأَهُمُ
الْأَسَاسِي أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا حَذِرِينَ، لَمْ يَكْتَرِثُوا مِنْذُ الْبِدْءِ بِرِسَائِلِ
الْعُنْفِ غَيْرِ اللَّفْظِيَّةِ».

وقد حدثت معها أثناء عملها.. أن شاهدت المجني يجنح إلى

تكرار سلوكه المُدمر في جميع ظروف الحياة: في مقر العمل، والحياة الزوجية، ومع الأطفال أيضاً، ويمتلى كتابها الثمين بنماذج جنحية مختلفة حسب كل ظرف. والأهم من ذلك هو وصفها الدقيق لعلاقة التحرش بين الطرفين والتي تتشكل عبر مرحلتين، الأولى.. هي الإغواء الفاسد الذي يُعتبر مرحلة تحضيرية من أجل زعزعة الآخر وإفقاده ثقته بنفسه ووضع في قبضة اليد وتحت التأثير السلبي، والمرحلة الثانية.. هي العنف الظاهر.

إذن.. التقية ذاتها دوماً كما تصفها الكاتبة، حيث يتم استخدام نقاط ضعف الآخر ثم اقتياده لأن يشك في نفسه بغية تهديمه وتحطيمه، وبهذا الشكل يتم تقطير العدوان بجرات صغيرة ويفضل أن يكون ذلك أمام الناس ليصبحوا شهوداً فيما بعد على ردة فعل الضحية. فإذا ردت فإنها تدفع نفسها لازتكاب الخطأ.

ويندو الضحايا في المرحلة الأولى سليمين نفسياً غير أن أعراضاً من نوع خاص تبقى كمحاولة لإخفاء العنف الذي يعانون منه، وقد تكون هذه الأعراض (جزعاً عاماً، إرهاقاً مزمناً، اضطرابات المزاج، أرقاً، آلاماً في الرأس)، وأحياناً كثيرة تكون على هيئة اضطرابات نفس/جسدية واضحة كـ (ارتفاع الضغط الشرياني، التهيج، أمراض جلدية حساسية وأكزيما، ورمماً، قرحة معدة أو اثنا عشر....).

يبدأ التحرش بشكل خفي وغير مُعلن، ثم تزداد الوخزات وتتضاعف الهجوم وتضييق الخناق على الضحية بانتظار أن تخرج

عن طورها أمام الناس الذين سيحكمون عليها حكماً غير لائق، وربما يعاتبونها ويحاسبونها أيضاً، فقد يندو الشخص مازحاً مثلاً حين يقوم بقذف تعليق هازئ وساخر أو إطلاق لقب خشن على صديقه أمام البقية، مما يضطره إلى تحويل وجهه منه إلى دُعاة.. لكي يتفاداه ويخرج من الموقف سالماً، ويكون هذا التكنيك هو الثمن الذي يدفعه الصديق من أجل أن يحافظ على شريكه أو لكي لا يظهر بمظهر (الأحمق)، أو الشخص الذي لا يتقبل المزاح.

ولهذا تقول المؤلفة بأنه «قبل أن يصبح العنف مُمكنًا، يقوم المعتدي بالانتقاص من قيمة الضحية انتقاصاً يقبله الآخرون ثم يتبنونه، وهذا الانتقاص يُبرر لاحقاً الخسونة التي تردُّ بها الضحية مدافعة بها عن نفسها، مما يقود الناس إلى الاعتقاد بأنها تستحقُّ فعلاً ما يحصل لها».

ويكفي أن تشعر الضحية بالخوف من مجرد رؤية المتحرش، فالخوف وحده يجبر الإنسان على التصرف بشكلٍ مشوش، وأحياناً مرضي.. فتصبح شريسة مثلاً، أو مكتئبة أو مؤسوسة أو مُنغزلة، ومهما حاولت أن تبدو مُتزنة وقادرة على التماسك فإن عودة المتحرش للنيل منها من جديد والإيقاع بها.. سيدفعها طبعاً لارتكاب المزيد من الأخطاء والتي تحرمها من تعاطف الآخرين. وفي هذا المجال تُبين الدراسات أن 95% من حالات العنف العائلي بين البالغين يرتكبها الرجل، كما تُبين (دراسة الأمم المتحدة على نساء العالم لعام 2000م) أنه يتم تعنيف النساء في الولايات

المتحدة الأمريكية، عادةً من قبل أزواجهنَّ أو شركائهنَّ في العيش كل 15 ثانية. ولهذا ربّما استخدمت «فرانس» العديد من الأمثلة كمحاولةٍ لإثبات ما قدّمته إحصائيات الدراسات الحديثة على أن تكون النقطة المشتركة بين هذه المواقف العُنفية أنّها غيرُ قابلةٍ للوصفِ كما تذكر المؤلّفة، إذ لا تجرؤ الصّحية وهي تتعرّف على مُعاناتها على أن تتصوّر بأنّ هناك عنفاً وعدواناً يُمارس عليها، وعندما تجرؤ على الشكوى، تشعرُ بأنّها لا تُجيدُ الوصف، وبالتالي لن تجد آذاناً صاغية.

أيضاً هناك نقطة أخرى.. وهي انتقالُ الشعور بالذنب للصّحية بصورةٍ كاملة، بحيثُ تتقمّصه وتندمُ على أشياءٍ لم تقم بها، وحين تهترئُ العلاقة التي ترغّبُ في الحفاظ عليها فإنّها تلومُ نفسها، حيثُ تظنُّ بل تكونُ متأكّدةً بأنّها السبب في هذا الاهتراء، بينما يُصدّرُ الجاني ذلك الذنب للخارج ليُخبر الآخرين بأنّ الصّحية هي السبب فعلاً.

المشكلة أن الرجل مثلاً عندما يعترفُ لزوجته أو صحبته بأنّه على علاقةٍ بامرأةٍ أخرى، فهي لا تغضب من صديقها أو من زوجها الذي سبّب لها المُعاناة، بل من نفسها لأنّها لم تستطع المُحافظة عليه، بينما من المُفترض أن تشعرُ بالغضب من الآخر، وأن تقرّ بأنّه عدواني وعنيف، لأنّ هذا الإقرار يُبعد عنها تأنيب الضمير، ويجعلها أقوى إن أرادت أن تبتعد عنه، أو تمنّت أن تزول رغبتها في العودة إليه مُجدداً، سواءً إن عاد إليها، أو لم يعد.

وبالإضافة إلى الإقرار.. ربّما يكون من المُناسِب أيضاً
 الانسحاب بهُدوءٍ خارجِ حياةِ الخائن، التسلل على أطرافِ الوجع،
 بثباتٍ وخطواتٍ صغيرةٍ بِشكْلِ لا يُلاحظه أحد، فبينما يكونُ هو
 غارقاً في (عسل) جديدٍ ومُصفًى.. بإمكانها هي أن تقفز من حياته
 بِسهولة، لعلّها تتمكّن من البدءِ بِحياةٍ أخرى أقلّ إهانة.. أو تسير
 نحو حبٍ آخر، وسعادةٍ تستحقها.

ألا تلاحظون أنّ الجاني دائماً ما يحتاجُ إلى أن يسقط العيوب
 على الشريك السابق ويُجرّده من مُميزاته ويُشعره بأنّه لا يساوي
 شيئاً!!، وأنّه لكي يُبرّر لذاته الخيانة والتلاعب، ولكي يُنسبَ
 صفة الكمال إلى غرامٍ جديدٍ.. فلا بدّ له من تدميرِ كل ما يعيقه،
 وهكذا.. «لكي يكونُ هناك (حبٌ)، يجب أن تكونُ هناك (كراهيةٌ)
 في مكانٍ آخر، فالعلاقة الغرامية الجديدة مثلاً تُبنى على كراهية
 الشريك السابق».

فقد تشعرُ امرأةٌ ما بِخيانة، لكنّها تعودت ونشأت على أن تُحمّل
 نفسها ذنب ذلك، كَونها لم تعدّ جميلة أو صغيرة أو مُغرية أو ثرية
 بما يكفي لأن يبقى مُخلصاً لها، خاصةً حين يُجبرها معنوياً على
 البقاء تحت رحمته، ويُوهمها بأنّ الانفصال يُتيح له فرصة أفضل مع
 إحداهن فوراً، بينما هي ستظلُّ وحيدة بلا شريك، وأنّ لا أحدٍ سواه
 سيُقبلُ بها أو أنّه سيَرْضخها على قبول واقع وجود المرأة الأخرى
 في حياته حتّى لا يتحمّل هو مسؤولية الانفصال. إنّه يقودها إلى
 الخطأ ويُقلب الطاولة ليُصبح في نظر الآخرين البريء الضحية..

الذي يَحْتَاجُ لَأَنَّ «يُغْرَقَ الْآخِرُ.. لِكَيْ يُحَافِظَ عَلَى رَأْسِهِ فَوْقَ الْمَاءِ». إِنَّهُ يَتَصَرَّفُ بِمَكْرٍ كِي تَأْخُذَ هِيَ بِزِمَامِ الْمُبَادِرَةِ وَتَطْرُدَهُ مِنْ حَيَاتِهَا، وَبِذَلِكَ تُضْبِحُ الضَّحِيَّةُ هِيَ الْمَسْئُولَةُ عَنْ تَدْمِيرِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ، وَتَحْمَلُ تَبْعَاتِهَا اجْتِمَاعِيًّا وَشَرْعِيًّا، وَرُغْمَ ذَلِكَ.. فَإِنَّهَا سَتَكُونُ مُذْنِبَةٌ فِي نَظَرِ الْمُجْتَمَعِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، لِأَنَّهَا إِذَا انْتَهَارَتْ اعْتَبَرُواهَا مُجْنُونَةً، وَإِذَا طَلَبْتَ الْإِنْفِصَالَ لَامُوهَا عَلَى عَدَمِ صَبْرِهَا، وَإِذَا تَحَمَّلْتَ الصَّدْمَةَ وَصَبِرْتَ.. فَإِنَّهُمْ يُجَرِّدُونَهَا مِنْ صِفَةِ الْكِرَامَةِ وَالْإِحْسَاسِ.

لِسُوءِ الْحِظِّ أَنَّ الشَّرِيكَ الْفَاسِدَ أَوْ الْجَانِي لَا يُهَاجِمُ الْجَانِبَ السَّلْبِيَّ، بَلْ يُهَاجِمُ الْجَانِبَ الْحَيِّ فِينَا، أَيْ الْحَيَوِيَّةَ الَّتِي يُلَاحِظُهَا وَيُحَاوِلُ الْاسْتِحْوَاذَ عَلَيْهَا، كَ (النَّجَاحِ، الْإِهْتِمَامِ، الْجَمَالِ، السُّمْعَةِ الْحَسَنَةِ)، وَأَظْنُهُ لَا يَعْرِفُ إِلَّا الْمُنَافَسَةَ الْهَدَامَةَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَخْسِرَ فِيهَا شَخْصٌ مَا.. كِي يَفُوزَ الْآخِرُ.

الضَّحِيَّةُ غَالِبًا مَا تُثِيرُ الْحَسَدَ، لِأَنَّهَا لَا تَعْرِفُ كَيْفَ تَعْرِفُ كَيْفَ سَعَادَتِهَا أَوْ مُتْعَتِهَا بِامْتِلَاكِ هَذَا الشَّيْءِ أَوْ ذَاكَ، وَبِمَا أَنَّهَا بَرِيئَةٌ.. فَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ تَصُورَ هَذَا الْقَدْرِ مِنَ التَّلَاعِبِ، وَتَرُغِبُ فِي الْحَوَارِ مَعَ الشَّرِيكَ لِإثباتِ بَرَاءَتِهَا وَسَلَامَتِهَا مِمَّا تُوصِمُ بِهِ. وَتُجَرِّبُ الْحَوَارِ وَالتَّنَازُلَ لِكِي تُثْنِيَهُ عَنْ خِيَانَتِهِ، وَلَكِنْ.. مَا يَحْدُثُ أَنَّهَا قَدْ تُخْفِقُ بِكُلِّ جِدَارَةٍ، لِسَبَبٍ بَسِيطٍ جَدًّا.. وَهُوَ أَنَّ أَغْلَبَ (الْخَوَنَةَ) لِلْأَسْفِ يَرْفُضُونَ الْحَوَارِ.

فَلَا يَبْقَى حِينَهَا سِوَى أَنْ تَتَمَنَّى الْمِسْكِينَةَ أَنْ يَسْتَيْقِظَ شَرِيكُهَا

من عَفَلته، وأن يَعُود إليها مُعْتذراً، نَادماً على ما سَبَّه لها من ألم. وفي الغالب تَبْقَى الأُمْنِيَّاتُ كَمَا هي.. مُجَرَّد أُمْنِيَّات، حَتَّى تَعْتَادُ هي على الخِيَانَات، أو يَأْتِي ذلك اليوم الذي تَنْقُض فيه.

وبهذا فَإِنَّ هذا النَّوع من العُنْف المَعْنَوِي الذي نَتَحَدَّثُ عنه، يُوجِّه في الغالب إلى الشَّرِيك بِغِيَّةٍ تَخْطِئُهُ، حَتَّى لا يَكُونُ فُخُوراً بِنَفْسِهِ، والمُوجِع.. أَنَّهُ عِنْدَمَا لا يَكُونُ هذا الشَّرِيك مَوْجُوداً.. فَإِنَّ العُنْفَ يَنْتَقِلُ مُبَاشَرَةً إلى الأَطْفَال، وذلك لِأَنَّهم مَوْجُودُونَ وَيَرْفُضُونَ التَّخْلِيَّ عن الوَالِدَةِ المُسْتَهْدَفَةِ، وبذلك يَتِمُّ الاعتداء عليهم مَعْنَوِيّاً أَيضاً على أَنَّهُم أَطْفَالُ ذلك الآخِر، ولِمُجَرَّد كُونِهِم شُهُوداً على صِرَاعٍ لا يَعْنِيهِمْ، وليَسُوا طرفاً فيه.

وبما أَنَّ لُعبَةَ «التَّحْرُش» تقومُ على إثارة الآخِر ودَفْعِهِ لِلخَطَأ، فَيَتَوَجَّهُ على الصَّحِيحَةِ أَنْ تتَعَلَّمَ كيف تُقاوم دُونَ أَنْ تُظْهِرَ آثارَ المُقاومة!!، بِمعنى مُواجهَةِ الخَصْمِ ومُحَارَبَتِهِ بِذاتِ الأَدَاةِ، كَأَنَّ تَكْتُمُ غَيْظَهَا وتَعَبَّهَا وتُظْهِرُ بِمُظْهِرِ اللامُبَالَغَةِ والاحتِفاظِ بِالإِتِسَامَةِ والإِجَابَةِ بِرُوحِ الدُّعَابَةِ، وَألاً تَدْخُلُ في تلكِ اللَّعبَةِ العُدوانِيَّةِ.

وأياً كان نوع التَّحْرُش الذي نَكُونُ قد عَانَيْنَا مِنْهُ، سِوَاءٍ على مُسْتَوَى العِلاقاتِ الأَسْرِيَّةِ، أو مُؤَسَّسَةِ العَمَلِ، أو الزَّوْجِ أو الصَّدَاقَةِ أو حَتَّى العِجِيرَةِ، فَمِنَ المُهِمِّ كذلك أَنْ نَشْعُرَ بِوُجُودِ (سَنَدٍ) يُصَدِّقُنَا وَيُسَاعِدُنَا على التَّخْلُصِ مِنْ شَرِكِ العَنكَبُوتِ الذي نُصِبَ لَنَا، إِنَّنا نَحْتَاجُ في ذلكِ الوَقْتِ إلى صَدِيْقٍ أو مُسْتَشَارٍ أو طَبِيبٍ نَثِقُ بِهِ كَي نَسْتَطِيعَ أَنْ نُقاومَ نَفْسِيّاً ونَفْهَمَ وَنَسْتَوْعِبَ ما يَحْدُثُ، وَيَكْفِي أَحْيَاناً

وَجُودِ شَخْصٍ وَاحِدٍ يُشْعِرُنَا بِالثَّقَّةِ بِذَاتِنَا فِي أَيِّ سِيَاقٍ كَانَ.
 فِي فِتْرَةٍ مِنَ الْفِتْرَاتِ.. لَمْ تَكُنْ طَوِيلَةَ لِحْسَنِ الْحِظِّ، تَفَاوَتْ
 دَرَجَاتُ السَّلَلِ النَّفْسِيِّ الَّتِي أُصِيبْتُ بِهَا بَيْنَ تَوْقُفِي عَنِ أَدَاءِ الْإِنشِطَةِ
 الْيَوْمِيَّةِ وَتَرَدُّدِي وَأَنْسِحَابِي الْاجْتِمَاعِيِّ وَعَجْزِي عَنِ اتِّخَاذِ الْقَرَارَاتِ،
 لَقَدْ قَضَيْتُ مِثَالَ الْيَوْمِ لَكِي أَنْتَبِهَ بِأَنْنِي صَحِيحَةٌ، وَكَانَ لِرِزَامِي عَلَيَّ أَنْ
 أَقْضِي ضِعْفَ تِلْكَ الْيَوْمِ لِأَوَاجِهِ مَا عَانَيْتَهُ بِصِمْتِ أَحْيَانًا وَبِمَسْئُولِيَّةِ
 أَحْيَانٍ أُخْرَى، الْقَضِيَّةُ الْمُهَمَّةُ هُنَا قَدْ لَا تَتَعَلَّقُ بِمَدَى الْأَذَى الَّذِي
 تَعَرَّضْتُ إِلَيْهِ وَلَا بِنَوْعِيَّةِ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ تَأْمَرُوا عَلَيَّ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ
 تَنْصَبُ حَوْلَ مَا لَدَيَّ مِنْ إِرَادَةٍ وَقُدْرَةٍ عَلَى تَجْمِيعِ شِتَاتِ نَفْسِي مِنْ
 جَدِيدٍ.

المُشْكَلَةُ أَنَّ التَّلَاعِبَ بِالْمَشَاعِرِ وَالْإِهَانَاتِ الْمَخْفِيَّةَ وَنَسْجُ
 الشِّبَاكِ يَنْجُحُ بِقَدْرِ مَا يَكُونُ الْمُعْتَدِي شَخْصًا نَثَقُ فِيهِ، إِلَّا أَنْ قُدْرَتَنَا
 عَلَى الْعَفْوِ وَالسَّمَاحِ وَتَهْدِئَةِ الْأَوْضَاعِ وَتَلْطِيفِ الْأَجْوَاءِ مِنْ أَجْلِ
 الْمُحَافَظَةِ عَلَى اسْتِمْرَارِ الْعِلَاقَاتِ، هِيَ أَمُورٌ تَجْعَلُ مِنَّا أَشْخَاصَ
 أَقْوِيَاءَ وَنُبُلَاءَ رُبَّمَا، وَهَذَا مَا لَا يَسْتَطِيعُ الْمُعْتَدِي غَفْرَانَهُ لَنَا، لِأَنَّهُ
 سَيَعْتَبِرُهُ بِمِثَابَةِ «أَنْسِحَابٍ مِنَ اللَّعْبَةِ». وَقَدْ كُنْتُ أَمِيلُ فِي الْبِدْءِ فِعْلًا
 لِأَنَّ أَكُونَ أَكْثَرَ وَدَاعَةَ كُلَّمَا زَادَ الضَّغْطُ أَوْ تَوَهَّمْتُ كِرَاهِيَتَهُمْ لِي،
 وَلَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا يُثِيرُ الْمُعْتَدِينَ وَيَجْعَلُهُمْ أَكْثَرَ عِنْفًا وَجِلَافَةً،
 إِنَّهُمْ بِاخْتِصَارٍ لَا يَحْتَمِلُونَ أَنَّنَا لَا نَعَامِلُهُمْ بِالْمِثْلِ، وَأَنَّ أَكْثَرَ صَبْرًا
 وَتَمَسُّكًا بِهِمْ.

لَقَدْ كُنْتُ ضَعِيفَةً جَدًّا أَمَامَهُمْ - نَعَمْ كُنْتُ - لَيْسَ لِأَنْنِي

خلقتُ كذلك، ولكن لأنني لم أتَّبه بأنَّ هناك من يُحيك مؤامرة ما ضِدِّي بصمتٍ ويرغب بإيذائي بصمتٍ وإذلالِي بصمتاً وبانهياري بصمتٍ أيضاً، فحياتي توقَّعتها بلا أعداء ولا مُنغِّصات، بلا مُقاومة ولا مُجازفات، ولهذا كنتُ أَدافع عن نفسي وأسارع بالاعتذار عن أخطاءٍ لم أرتكبها كُلماً ظهر أحدهم غاضباً في وجهي في مُحاولَة لاستيقائه في حياتي، كما لو أنني المُذنبَة، لم أرغبُ في يوم ما أن أخسر أحداً، حتَّى الأعداء الذين اختاروني، لكنني متأكِّدة الآن بأنني اخترتُ عمداً الدَّور الضعيف وتفادي المَجْهُود المُؤلم الذي ينتج عن رفض الواقع والتَّمرُّد عليه.

لقد اعترفتُ أخيراً بأنني من سَمَح لهم بإفساد حياتي وكياني بمعني الكلمة، لأنني ببساطة أعطيتهم مجالاً لإهانتِي باستمرار، ممَّا زاد مقدار الاعتداء المَعنوي علي، ولقد كان هذا الاعتراف بمثابة بداية الخَلاص، حيثُ كان لا بدَّ لي أن أبدأ فوراً بطلب يد المُساعدة. ولأنني لا أستطيع قول الكثير هنا، إلاَّ أن الله وهبني مُساعدة سيِّدة وقفت بقربي أياماً طويلة، الأستاذة «شمس المؤيد» كانت سنداً كبيراً، ورُغم أنَّها لم تكن مُجبرة أبداً على تصديقي واحتوائي وإنقاذي، إلاَّ أنَّها آمنت بضرورة وقوفها بجاني في اللَّحظة التي لم أعد فيها قادرة على الوقوف مع نفسي ولا على الإيمان بي. ولأنَّ العنف بدأ يظهر للسطح شيئاً.. فشيئاً، وبدا ملاحظاً في مواقف كثيرة فقد كان من السهل الاستعانة مجدداً بالآخرين، كنتُ بحاجة إلى سندٍ واحدٍ فقط، مُساعدة صَغيرة، دَفعة قويَّة، مُبادرة

أولى، لكي تنهال عليَّ المَخارج والحُلُول، ولتَدْخُلِ والدتي الحبيبة ضمن الجنود المَجْهُولة، وليتَضامن معي أخواتي وبعض زميلاتي اللاتي حَضرن في الوقت المُناسب، لقد تغيَّر مفهوم العالم لديَّ في اللَّحظة التي اثبَهْتُ فيها بأنَّ كارثة كبيرة قد تحدث، جَرِمة ربَّما، ولم يكن مُناسِباً أبداً أن أُنْتَظر المُساعدة لتأتيني من تِلقاء نفسها، كانَ عليَّ أن أطلبها، أن أتخلَّى عن صَمْتي، أن أصرُخ طالبة النجدة حتَّى تسمعني (وفاء ميرة، ياسمين العايدي، ورُود الموسوي، ربَّاً بنجر، أمل الغنيم، سرين عابدين، نوال الرَّاشد، مرقت النجدي، نعيمة الرسن، منال العُوفي، عائشة الحشر، بلقيس، وريم....).

مفهوم الصِّداقة يلعبُ دوراً خطيراً في الإحساسِ بالطمأنينة إزاء المُستقبل المَجْهُول، إنَّها المِصباح السَّحري الذي أضاء طريقي الغامض، والذي أخرجني في ذاتِ الوقتِ من النَّفقِ الذي كنتُ قد اعتدتُ المُكوث فيه، لم استطع بعدها أن أفلِتَ أيدي صديقتي أبداً، كنتُ أخشى الفشل والنُّكوص والتَّراجع خُطوتين، أو العُودة إلى ذاتِ المَكَان، كنتُ بحاجة لأن يُخبرونني في كل مرَّة بأنني ما زلتُ إنسانة، وبأنني لم أرتكب ذنباً حتى أستحق ما يحدث لي، وبأنَّ الأشياء يُمكنها أن تستقيم، وأنَّ الحظَّ العابِس يُمكن أن يَتيسر فجأة. إنَّ «الاعتداءات الفاسدة سُرعان ما تتيحُ لنا الصِّداقات المُخلصة التي نَحْتَاجها»، فبعض الأشخاص من حولنا.. يستسلمون للتلاعب الذي نعيشه، يَعتادون، يَرْتَابون، يخشون الحقيقة، ويفضِّلون أن يُغمضوا أعينهم عمَّا يحدث، ثم يُلوموننا كضحايا، أمَّا السندُ

الحقيقي فيتمثل في أولئك الأصدقاء الذين يكتفون بوجودهم
حاضرين قلباً وروحاً، والذين لا يُطلقون الأحكام جزافاً، ولا
يستطيعون الصمت عما نعانيه.

أولئك الذين مهمما حصل يعرفون كيف يبقون هم أنفسهم،
وحيث نريدهم، لأن العلاقات لا يمكنها أن تنمو دون خطرٍ أو
دون مجازفات، والمجازفة الوحيدة هنا، هي أن نُصبح (حقيقيين)،
وقادرين على أن نفهم حقيقة الأصدقاء بحلوهم ومرهم أن نمدَّ
أيدينا ونطلب.. فقط نطلب، بدلاً من إدعاء السعادة، أو تزييفها.

تقاليدُ المرور.. إلى العالم الآخر

تقاليدُ المرور..

إلى العالم الآخر

كنتُ دائماً ما أوْمَنُ بأنَّه لا بدَّ للإنسان من (الحُب) حتَّى يُصبح كائنًا جميلاً قادرًا على مشاركة الآخرين وهزْم أنانيته، لكنني كثيرًا ما أتساءل ما هو المَغزى الجمالي لوجود ما يسمَّى ألمًا بـ (الموت)؟! حين كنتُ في الخامسة من عمري لم أفهم بالطبع معنى ذلك ولا قساوته، حتَّى بعد أن رأيت أمِّي تُفقدُ وعيها حُزنًا على والدها ذي الرّاحتين الرّطبتين والمُتمرسّتين في مسح الدموع، والتي ما زلتُ أستشعرُ دِفء باطنهما على وجتني حتَّى هذه اللّحظة.

بينما بدأتُ باستيعاب الموت مُتأخرًا ربّما في السّنة الأولى من الجّامعة حين فقدتُ صديقتي «رشا» التي اعتادتُ أن تجلس بين المحاضرات بالقربُ من ماكينة شراء المرطّبات الباردة، وحين لم ألوح لها ذات يوم عرفتُ بأنّها لن تكونُ موجودة أبدًا في ذات المكان.. ولا في أي مكانٍ آخر.

كانت «رشا» تستعدُّ لحفلة خُطوبتها من شخصٍ طالما كانت تحكي عنه وتتمنّاه، لكن عمود الكهّرباء الذي اضطّدمت به سيارتها سبقَ بهجتها بالحياة، وتجاوز جسدها هكذا بكامل الوجع ليشرطه إلى اثنين، ويشطر قلوبنا العديدة معه.. ويُبقينا دونها. المُشكلة أننا

لا نموت لأننا نهرم، أو نمرض، أو لأننا تعرّضنا لحادث ما، نحن لا بدّ أن نموت لأننا نعيش، فقط.. لأننا نعيش.

أعتقد بأنّ الأشخاص الذين يختارون (الطبّ) كمهنة أصيلة، يدرسون قبلها سنواتٍ طويلةٍ وصعبةٍ ومُنهكةٍ جداً ظناً منهم بأنهم مُقبلين على أعمالٍ بطوليّةٍ ومُحاولاتٍ ناجحةٍ دوماً في إنقاذ أرواح الناس، مُتأملين بعودتهم إلى العيادة من جديد مُفعمين بالحياة، الشكر والامتنان. ولا أظنّ أن تلميذاً في مرحلة الثانوية قد فكّر يوماً بالتسجيل في كلية الطب.. وهو مُدركٌ تماماً من أنّ (الموت) سيُكون جزءاً من عمله كطبيبٍ في المُستقبل.

أنابيبُ التنفّس الشفّافة، وخزات الإبر، البصاق الأخضر، الشفاه المتشقّقة، الجُفون الزرقاء، الجُروح، القطن الملوّث، رائحة الدمّ الحيّ، القُطّب السوداء، الطّفح، الكدمات، الشقوق، العورات، القلب، الوريد، الأنسجة، العظام، التفسّخ، التّشوهات، الجلد المَشدود.. المَنزوع.. المسحوب أو المُحترق، الأورام الصغيرة وتلك التي بحجم كُرّة الطاولة، بقع الدمّ الحمراء، التّزيف، انسداد القنوات، الأخبّار السيّئة، اللّوم، التّأنيب، الاهتياج، ضيق التنفّس، السُّعال، المحاليل الملحيّة الباردة، الإنعاش القلبي، العينان الشاخصتان، صفّارات الأجهزة الحيويّة، وصفُ علامات المُحتضرين وأنفاسهم، المَناديل الورقيّة المُستهلكة لأحبّاء المرّضى، وأخيراً إعلان الوفاة!!

لستُ متأكّدة تماماً من قدرتي على تفصيل أسبابِ اهتمامي بنصرٍ لم تُربكه وإقيّته، كلُّ ما أعرفه أنّي كنتُ أمامِ إغراءِ حقيقي

بالقراءة، وإن كان يُورقني مدى قُدرة «بولين دبليو شين / Pauline W. Chen» على التوفيق بين اللُّغة الضَّاغطة العمليَّة وبين الشُّعرية التي أحبُّ أن أبحث عنها في كلِّ قِراءاتي. إنَّ «الاختبار الأخير: أحاسيسُ وانطباعات طبيبة جِراحة عند مَوْتِ مَرضاها / Final Exam: A Surgeon's Reflections on Mortality» هو كتابٌ ذو بنية فنيَّة هجينة وغير مصنَّفة بتاتاً، ترجمه «م. فاضل طباخ».

ورُغم ما كتبه «شين» فإنَّها لم تَحْتَفِظْ قط بإحصاءٍ لجمیع المرضى الذين رَأَتْهم، يَدُوبون، يتَلَشَّشون ويُمُوتون، إنَّما ما تذكُّره جيداً.. هو العامُّ الذي رأَتْ فيه العَدَد الأكبر منهم، وكان هو ذاته أيضاً العامُّ الذي أنقذَتْ فيه من المَوْت أكبر عددٍ من النَّاسِ.

فبعدَ سنةٍ من إنِّهاء تَدْرِيبها كطبيبة.. بدأت تكتبُ بِشكْلِ مُستمرٍ ومُنْتَظَمٍ، وبَدَت الأفكار على شكلِ دَفَقَاتٍ ثرثرةٍ مُنهكة، ظنَّت حينها أنَّها من نَسجِ الخيَالِ فقط. ولم تُكُنْ في الواقعِ سوى حكاياتها المَحْجُوبَةِ بِطَبَقَةٍ رقيقةٍ عن مَرضاها الذي ماتَ مُعظمهم خلالَ العَقْدِ الأخير، هي في الحقيقة لم تَبْتكرهم، بل أعادتُ إنتاجهم، كما أنَّها أعطتهم معنىً مُستمدّاً من حَاضِرٍ تَنتمي إليه، وكذلك من ماضٍ شاركت في صنعه، وعاشت في حَضْمه، ثمَّ كانت شاهدةً عليه.

لقد بدأت تكتبُ الحقيقة بِشكْلِ مؤلِّمٍ، في محاولةٍ للكشف عن كلِّ شَخْصِيَّةٍ تشكَّلت فيها قبل المَوْتِ وبعده، الأمر الذي جعلها تصطادُّ الذكريات التي تتقاذف عليها من كلِّ صَوْبٍ ومن كلِّ اتِّجاه. ففي البدءِ جمَّعت معلوماتها في دفاتر صغيرة مُجلِّدة، ثمَّ طبَّعتها

على الأقراصِ الصَّلبة في جهازِ الكُمبيوتر الخاص بها، وفي كلِّ مرَّةٍ كانت تُستعرضُ ما كَتَبته كانت كما تَبكي من «ألم لا أعرفُ سببه، ومن إحساس عميقٍ بالعار، كان ذلكَ عِنْدما بدأتُ أرى ما آل إليه أمري، وما أصبحتُ عليه».

كانت «شين» تُصارع كلَّ تلك التناقضات بين كونها آلة إنقاذ وبينها كإنسانة تعيش مع صديقٍ يحترُّر لا تتمكَّن من زيارته، أو التفاعل مع شابٍ تعذب بِمرضه عذاباً لم يُنقذه منه سوى الموت، أو مُشاركتها في نشر (حوض) امرأةٍ وتقسيمه إلى نصفين.

يا لها من خبراتٍ تدورُ حولَ الوفاةِ واللحظات التي تسبقُ تلك النهاية. ولكنها تعمَّدت نشرها.. ومُشاركتنا إيَّها في هذا الكتاب الذي جَمع كلَّ حكاياتها خلال 15 عاماً من الخبرة السريرية. إنَّها بلا شكٍ من أصعبِ المهمَّات على الإطلاق. "في الاستعدادِ للموتِ قد يكمنُ أعظمُ الامتحانات، ولكنَّه في النهاية الامتحان الذي سوف يُحرِّرنا لنحيا".

حين فكرتُ بأن أراجع ما كتبه من ملاحظاتٍ عن «الاختبار الأخير»، تذكَّرتُ بأنني لم أتخيَّل أنني سأقرأ أن من يُعاني من الاختصار أحياناً لا يكونُ أكثرَ من عمليَّات جراحية تُجرى في مُنتصفِ الليل بالنسبة لبعضِ الأطباء. كما لم أتخيَّل أن أرى يوماً الجُثث التي تُوضع أمامهم في مادة التَّشريح يمكن أن تتحول كل عظمةٍ منها، أو عصب، أو وعاء دموي، أو عَضلة من عالمٍ مجهولٍ إلى مألوف، أو أنني سأشُمُّ المادة المُستعملة في حفظ

الجُثث وأستشعرُكم هي حَادَّة، زَنخَة، ونافذة. ولكن حَدَثَ لي ذلكَ حَقاً مع كل سَطْرٍ وتنهيدة كنتُ أزُفرها من خلال التَّعبير القوي والتَّفصيل الأَسِر الذي استَخدمته المؤلِّفة.

العمليات الجراحية والمعطيات الروائيةُ المتَّصلة بسيرة الآخر الميت، أو ذلك الذي كَانَ على وشكِ المَوْتِ تشابكت مع سيرة «شين» كمؤلفة وطبيبة كانَ هاجِسها منذُ البداية الإجابة على هذا السؤال: «هل ماتَ تماماً؟» وهو بحثٌ يدور حول ظاهرة السكّنة الدماغية. وعند هذا السؤال بالضبط ظهرت أمامي الذات الفردية للكاتبة بوصفها المرجعية الأساسية لمادة النص، فكل العناصر الفنية تُوحى بِسَرِدٍ هَجِينٍ بين الرواية والسيرة الذاتية، وتتصلُ بتلك الذات التي أَحَبَّتها بكلِّ تفاصيلها، والتي أيقظتها هي بعد سباتٍ طبيّ طويل. صدقاً يُحسبُ للمؤلفة تيقظها لخطورة التوجه السردى الذي يَصِفُ أحزان المهنة وأحلامها، خيبتها، وفواجعها وفق مقتضيات اجتماعية مُشوّبة بالعاطفة والتي تُحوّل الكتابة إلى قدر محتوم لا سبيل لإعادة ترتيب حلقاته. وتظهر هذه الإشارات وكأنَّ المؤلفة مدفوعة بإحساسٍ خفيٍّ بالذنب لأنها جاءت إلى عالم الطبِّ بمؤهلاتٍ سيئة في التعامل مع (مرضى نهاية العمر)، كما جاءت تَضُمُّر في نفسها كرهاً عميقاً لموتِ واجهته مرّة.. تلو المرّة. في حين أنها تعلمت من أساتذتها كبح آية مشاعر إنسانية نحو المرضى المحتضرين «كما لو أن التمكن من ذلك سيجعل مني طبيبة أفضل». ولكن مع الأيام وفي خضم كل أعمال الإنقاذ التي مارستها

خلال تلك السنوات، تغيّرت شيئاً فشيئاً نظرتها نحو الآخرين الذين (ماتوا)، بعد أن كانت قد نسيت إنسانيتهم، ونسيت أن لهم عائلات وأصدقاء، أن لهم ما يُحِبُّون.. وما لا يُحِبُّون، وأن لهم أيضاً آمال ربّما لا تختلف عن آمالها. كل ما كانت بحاجة إليه، هو أن تُفرّق بين ذاتها عاطفياً وعلمياً، وأن تنظر إلى جسم الإنسان الميت على أنه واحد (منّا).. وليس على أنه (أحدهم).

أتخيّل الموت دائماً وكأنه كائن بلا ملامح، ترتبط فكرته لديّ بلون الظلام والقبر والخشية من أن نكون وحدنا هناك، حيث لا أحد إلا التراب وأصوات أقدام تغادرنا ببطء حتى تختفي. وأظن أن اهتمام الناس بدفن أفكارهم عن الموت لا يقل شأنًا عن اهتمامهم بدفن موتاهم، وهذا ما يقوله «بوسويه Bossuet» المفكّر الكاثوليكي في القرن السابع عشر، فنحن نخاف الموت ونرتعد منه لأننا نعتقد أن الموتى يتعرّضون له بقسوة، وأنهم يعانون منه ويتألّمون، بينما المنطق الوحيد هو أن الموت قد يكون مؤلماً للأحياء فقط.

كما أظن أن ما تمّ تحقيقه بفضل سرد مثل هذه القصص المميّنة هو التوصل إلى كتابة تكون الذاكرة فيها طرفاً فاعلاً في اختراعها، بحيث تعهد بنفض الغبار عنها، أقصد.. عن تلك الذاكرة الإنسانية التي تُسيطر على دقات القلب وتستعصي على الكتابة.

ولا تحتاج هذه التجارب الكتابية إلى صياغة عرضٍ روائيٍ مستوفٍ بمفهومه التقليدي، فهي لا تعتمد التركيز على تركيب

الشخصيات وبنيتها ونُصوجها بقدر ما يعتمدُ على بشرٍ كانوا أحياءَ يوماً ما، لتبذو الشخصيات في السرد مُستكينةً عموماً، وممشوقةً بإرادة قدرية. وكأنَّ الخلق الفني لم يتدخل في صياغتها إنما تطلب منها كبت الخوف الإنساني الباطني فقط تجاه الموت، والبدء بالكتابة عنه.

لم تكنُ الطيبة تعاني من مرضٍ عضالٍ أو مُميتٍ حتى تُفكر في كتابة سيرتها، ولكن كان لديها العزم فقط على الملائمة بين ما علمها إياه الطب وبين الأسباب الحقيقية التي جذبتها إليه، كانت مثلاً في كل مرة تُريدُ أن تبكي على أولئك الذين تجدُ أواراماً مُنتشرة في بطونهم، ولكنها لم تكن لتستطيع مخافة أن تنهكها الدُموع وتُحجب عنها الرؤية، كانت ترغب في تخفيف آلامهم، وأن تحيل عنهم عبء التيقن من المستقبل المُحتم عليهم.. والذي لا سبيل لردّه أو تغييره.

ليس مفاجئاً حسب تعبير المؤلفة أن الأطباء قد يَمَلِكهم شعوراً بالبقاء أو الخلود، حيثُ أن كل طبيب منهم قد تمرُّ عليه حالة وفاة كل أسبوعين تقريباً أثناء فترة تدريبه التي تتراوح ما بين 3-5 سنوات، فلا بدَّ «أن عدد حالات الوفاة الكبير سيُجعل من الموت شيئاً روتينياً إلى حدٍ مُخيف»، وبهذا يرى الأطباء في أنفسهم بأنهم الأشخاص الباقين على قيد الحياة. وليس غريباً أيضاً أنهم يَمَلِكُون نحو الغرباء الميتين عقلياً وهدوءاً وحكمة لا يتوفر حتى القليل منها حين يتعلق الأمر بتقبُّل موت أحبائهم.

مُحاوَلَةٌ اتَّخَذَ الطِّبُّ مِهْنَةً فَقَطَّ.. جَعَلَتِ الحَيَاةَ لَدَى «شِين»
 أَمْرًا لَا يُطَاقُ. لَقَدْ فَصَلْتَهَا عَنِ الوَاقِعِ وَجَعَلْتَهَا غَرِيبَةً عَنِ هَذَا العَالَمِ،
 وَكَأَنَّهُ لَيْسَ بَيْتَهَا.. وَكَأَنَّهَا لَا تَنْتَمِي إِلَيْهِ. فَجَاءَتْ قَفَزَتَهَا كَطَبِيبَةٍ إِلَى
 مَوْتَاهَا عِبْرَ تَدْوِينِهِمْ.. قَفْزَةٌ أَكْثَرُ اتِّزَانًا وَإِنْسَانِيَّةً مِنْ كُلِّ مَا تَعَلَّمْتَهُ
 فِي مُحاوَلَةِ إِنْقَاذِهِمْ. بِبِساطَةٍ.. لَمْ تَكُنْ تُرِيدُ أبدأً أَنْ تُصْبِحَ (مُنتِجَةً)
 فَقَطَّ لِسِلْعٍ ضِدَّ المَوْتِ. كُلُّ مَا كَانَتْ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، بِاعْتِرَافِهَا هُنَا، هُوَ
 أَنْ تَتَعَلَّمَ لَيْسَ فَقَطَّ (العَمَلُ السَّرِيرِي) وَلَكِنْ (الأَحَاسِيسُ السَّرِيرِيَّةُ)
 أَيْضًا.

يَغِيبُ عَنْهُمْ كَأَطْبَاءٍ كَمَا تَقُولُ الكَاتِبَةُ الإِحْسَاسَ بِمِشَاعِرِ
 نِهَايَةِ العُمُرِ، لِأَنَّ الرَّغْبَةَ عِنْدَ المَرَضِيِّ وَذَوِيهِمْ لِحَلِّ أُمُورٍ سَابِقَةٍ
 وَلِتُصْحِحَ الأَشْيَاءَ وَالمِشَاعِرَ تُصْبِحُ أَقْوَى حِينَهَا، بِحَيْثُ تَظْهَرُ عَنِ
 طَرِيقِ المُطَالَبَةِ بِالمَزِيدِ مِنَ التَّدخُّلِ العِلاجِيِّ الَّذِي عَلَى مَا يَبْدُو هُوَ
 الإِمْتِدَادُ الطَّبِيعِيُّ لِهَذِهِ المِشَاعِرِ، لِتَكُونُ المُعَالَجَةُ مَجَالًا لَيْسَ لِلحَبِّ
 فَقَطَّ.. وَلَكِنْ لِلأَمَلِ أَيْضًا. وَلِهَذَا بِالذَّاتِ أَرَادَتِ المُؤَلِّفَةُ أَنْ تَعُودَ إِلَى
 اللَّائِحَةِ وَتُمزِّقَ كُلَّ مُذَكَّرَةٍ وَفَاةٍ أَعْلَنْتَهَا، لِتَكْتُبَ شَيْئًا أَكْثَرَ مُلَائِمَةً مِنْ
 اِخْتِصَارِ المُذَكَّرَةِ إِلَى ثَلَاثِ خَطَوَاتٍ تَجِدُونَهَا بِالتَّفْصِيلِ فِي كِتَابِهَا.
 حَتَّى كُتِبَ الطِّبُّ الَّتِي مِنَ المُفْتَرَضِ أَنَّهَا تَحْوِي أَيْضًا مِنَ
 المَعْلُومَاتِ قَلَمًا تُقَدِّمُ كِيفِيَّةَ العِنايةِ بِالمُحْتَضِرِينَ. لَكِنْ القَلِيلُ مِنَ
 الأَطْبَاءِ فَقَطَّ يَتَعَلَّمُونَ بِالشَّكْلِ الصَّحِيحِ كِيفِيَّةَ العِنايةِ بِالمَرَضِيِّ وَهُمْ
 فِي نِهَايَةِ حَيَاتِهِمْ، فَيَنْتَهِي بِهِمُ الأَمْرُ إِلَى النِّبْشِ مِنْ بَيْنِ تَجَارِبِهِمْ
 الخَّاصَّةَ وَمُراقِبَةَ مَرَضَاهُمْ وَهُمْ يَمُوتُونَ، وَأحيانًا تَحْتَ أَنْظَارِهِمْ

مباشرة. إنها علامة مؤلمة ليس لأنهم يُعاشون مثل هذه الفظائع، ولكن لخروجهم منها غير متأثرين، وحسب ما تصفه «شين» أن الأطباء باستطاعتهم الانضمام مع الآخرين إلى طاولة الإفطار بعد رحلة موتٍ خاضوها مع أحد المرضى في ذات الصباح!!.

تقاليد المرور إلى العالم الآخر.. إلى الموت تحديداً، هي تعاليم مفزعة بعزلتها، فالموت قد يعني لنا كأحياء بأننا سنفقد الآخرين ونشتاقهم. فحين نفقد عزيزاً، حبيباً، أو قريباً، فإننا نفتقد أشياء كثيرة نجتمعنا به، حتى يُصبح هو فيما بعد (شيئاً) ككل الأشياء، وفي هذا السياق يُصبح الموت فشلاً شخصياً للطبيب.. وإيقاف العلاج إعلان بالهزيمة.

للجسد إذن طاقاته، قوائمه، جمالياته، قبحه، حيويته، حرارته، دفؤه الذي يتحول إلى برودة وينتهي بمجرد الموت. وهذا ما يجعلنا ندفن جثث أحبائنا.. نُحرقها.. نُغرقها حتى نتخلص من أيِّ وهمٍ باقٍ يعودتهم إلينا. أظننا تعلمنا كما يقول الفلاسفة من الإنسان البدائي الأول الذي كان يجلس أمام جثث أحبائه بانتظار أن تستيقظ من نوم طويل حتى تتحلل وتختلط بمكونات الأرض وذراتها، وحتى تأكد فيما بعد بأن هذا السبات لا يعني سوى حقيقة الحياة القاسية.. والوعد الصارم بـ (عدم العودة).

لقد ألف «مونتاني» كتاباً بعنوان «الفلسف: هو أن تتعلم كيف تموت» وهي فكرة تختلف عن الفلسفة اليونانية كونها تُشرع سؤالاً يُبقينا على قيد الحياة: «كيف تُواجه الموت.. وكيف تنتظره؟».

ببساطة لقد راقب «مونتاني» أشخاصاً يموتون وتفاجأ بأن لا أحد من هؤلاء كان يخشى الموت. وهذا ما حدث لجدي الذي غادرنا قبل سنوات. لقد كان يتوقع بهدوء الموت قبل ساعات منه وكأنه تصالح معه وفهم كغيره من الأتقياء كيف سيُضبحون أمواتاً بلا استثناء.

بعد وفاة جدي حزنْتُ كثيراً على رائحته التي غابت، وعلى صوته حين كان يُواسيني في ظلمي ويقراً عليَّ ((إنَّ الله يُدافع عن الَّذِينَ آمَنُوا))، وحزنْتُ أكثرَ بأننا قُمنَّا بِدِفْنِهِ فِي أَرْضِ (مَكَّة) ذَلِكَ الْمَكَانِ الْأَوَّلِ الَّذِي أَرَادَ الذَّهَابَ إِلَيْهِ فِي بَدَايَاتِ مَرَضِهِ، وَتَسَاءَلْتُ كَيْفَ لَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نُدْفِنَهُ فِي السَّمَاءِ.. هُنَاكَ حَيْثُ كَانَتْ عَيْنَاهُ، رَغْبَتُهُ، أُمْنِيَّتُهُ، وَإِشَارَةُ إضْبَعِهِ الْأَخِيرَةَ؟!.

حُجْرَتُهُ وَحِيدَةٌ، مُجَرَّدَةٌ مِنَ اللَّوْنِ وَالْمَلَاءَاتِ وَالْأَشْيَاءِ الثَّمِينَةِ، لَكِنَّهَا تَتَنَفَّسُ عَادَاتِهِ وَتَمْتَمَاتِهِ وَتِلَاوَاتِ صَدْرِ لَمْ يَكْفُفَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ. غَرِيبٌ!! كَيْفَ لَا تُوجَدُ أَيُّ قَنِينَةٍ عَطِيرٍ أَوْ سَالِ حَرِيرٍ أَوْ أَيِّ أَدْوَاتٍ لَهُوَ آدَمِيَّةٌ هُنَا؟!.. مُجَرَّدَ كَوْمَةٍ ثِيَابٍ قَلِيلَةٍ تَتَفَانِي فِي التَّعَافِي مِنَ الدُّنْيَا وَالزُّهْدِ فِيهَا.

لَمْ أَكُنْ أَبُهِ بِالضُّوءِ الْمُتَسَلَّلِ مِنَ الثُّقُوبِ حَتَّى بَعْدَ غِيَابِ جَدِّي «إِبْرَاهِيمَ». صِرَامَةُ الْأَشْيَاءِ وَحَمِيمِيَّتِهَا الَّتِي خَلَّفَهَا مَوْتُهُ كَانَتْ تَنْزُرُ بِدَاخِلِي، حَادَّةً، تَرَاجِيدِيَّةً، عَذْبَةً وَمُتَضَارِبَةً. أَشْعُرُ بِفِرَاقٍ مُحْكَمٍ يَشُدُّ خِنَاقَهُ عَلَيَّ وَيُوْذِي مَلَامِحِي.. أَنَا الْكَائِنُ الَّذِي مَا زَالَتْ مَلَامِحُهُ تَدُلُّ عَلَيْهِ.

المؤلم حذَّ التبلدِ والدهشة أنه لا يُمكننا أن ننتقم من هذا الفقد،
ولا استبدال (الآتي) الذي لم يعدْ جدِّي جزءاً منه، ولا حتى ذلك
الذي لم تعدْ تنطوي عليه أصغرْ جزئياته الطاهرة.

الموت كمفردة، لغة، تاريخ، قاموس، لا تعيننا ولا تُشغل بالنّا
كثيراً. ما يهْمُنّا في العادة هو أن لا نَفقد من نُحبُّ كما نَفقد قطرة
مطرٍ ارتطمت للتو بسطح الأرض وذابت فيها، أن لا تخفي رائحته
من جسدٍ طالما تعرّفنا عليه وميّزناه بها قبل أن نراه، تلك الرائحة
التي لا تبقى طويلاً بعد أن يفارق صاحبها الثياب التي كانت تؤويه
من الموت.. وتؤويه منّا.

في الواقع إنَّ التعايش مع أشخاص يموتون بالفعل.. قد تُزيل
الكلفة بيننا وبين المجهول، تُدخلنا إلى منطِقة مألوفة تُشبه الروح،
بيضاء ورشيقة لا تُشكّل الحياة فيها هماً من همومها، تُعلّمنا أن
هناك أناساً مُستعدون للذهاب دائماً حين تلوح لهم النهاية وأنهم
قادرون على احتضانه عندما يمدُّ ذراعيه الطويلة إليهم. وتُعلّمنا
أيضاً كيف نتدارك الوقت لأن نُخبرهم بمدى حُبنا وتقديرنا لهم
قبل موعِد رحيلهم.

أليس من المهمّ أن نُدرك بأنّ الموتى لا يختفون؟! أظنُّ أنه
من الخطأ أن نعتقد بأنّه لا توجد طريقة للتواصل معهم!! كلُّ
الذي تغير بيننا وبين حبيبنا الميت أن الوسيلة التي كُنّا نتصلُّ بها
معه اختلقت الآن، وعلينا أن نعتاد فقط على لغة الموتى وإن كُنّا لا
نجد منهم استجابة تُرضي أجسادنا التي ما زالت تدبُّ فيها الحياة

ولم تفارقها بعد.

في إحدى روايات «ويليام سارويان» وعُنوانها «الكوميديا الإنسانية»، يقول «سبانغلر» مؤاسياً صديقه: «حاول أن تتذكر أن الإنسان الخير لا يُمكن أن يموت أبداً، وسوف تراه مرّات عديدة، في الطُرقات، في البيوت، وميادين المدينة، ستراه في مزارع الكروم، بين أزهار الأوركيد، في الأنهر والسحب، وفي كل مكان، إنك سوف تحسه وتلمسه في كل ما أنبتته الحب، ستحسه في كل هذه الأشياء الوفيرة، وفي كل ما ينمو ويكبر، إن جسد الإنسان الخير قد يمضي، أو قد يُحمّل بعيداً، ولكن أفضل ما فيه سوف يبقى أبداً، إنَّ الحب خالدٌ.. وهو ما يُخلد الأشياء جميعاً، أمّا الكراهية فتموت في كل لحظة».

ونحنُ كالأطباء أيضاً.. لم نختر الحياة حتى نختار الموت، المسألة أننا لم نولد أحراراً، كلُّ ما فعلناه أننا تمسكنا بشيء بدأنا نعتاده. نعم.. لقد اعتدنا الحياة، أمّا (الموت) فلم نُجربه بعد. إنَّه ذلك المجهول الذي نخافه، نتفاداه، ونستعيد من مفاجاته. قد يكون علينا أن نفكر به، نتقبله، نحبه، ونبرز أجمل ما فيه وإن كان مؤلماً بالدرجة التي لا يحتملها البقاء، وإن كانت رغبتنا جامحة في إعادة الحياة إلى كلِّ من سبقونا، تركونا، ورحلوا دوننا. أولئك الذين ما زالوا يموتون فينا كلَّ يوم، مهمّا حاولنا استعادتهم بكامل الحب.. أو بدعوى الذكريات.

مكتبة

t.me/soramnqraa